النظامُ الخاصّ لأهل الاختصاص

للسيد الإمام أحمد الرفاعي

٥١٢ - ٥٧٨ هـ

يليه

كتاب الشرف المحتم

للإمام جلال الدين السيوطي

٨٤٩ - ٩١١ هـ

تحقيق

الدكتور محمد حسني مصطفى

دار القلم العربي

النظام الخاص لأهل الاختصاص

للسيد الإمام أحمد الرفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم

النظام الخاص لأهل الاختصاص

للسيد الإمام أحمد الرفاعي

٥١٢ - ٥٧٨ هجرية

يليه

كتاب الشرف المحتم

للإمام جلال الدين السيوطي

فيما منّه الله به على وليّه السيد أحمد الرفاعي

من تقبيل يد النبي صلى الله عليه وسلم

تحقيق

الدكتور محمد حسني مصطفى

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1422 هـ - 2002 م

عنوان الدار:

سورية ـ حلب ـ خلف الفندق السياحي ـ شارع هدى الشعراوي

ص.ب:78 هاتف: 2213129 فاكس: 2212361 21 963+

مقدمة المحقق

(تمّ نورك فهدَيْت ، فَلَكَ الحمدُ ، عظُم حِلْمُكَ فغفَرْتَ فلَكَ الحمد ، بَسَطت يدَكَ فأعطيْتَ فلك الحمد ، ربَّنا وجهُك أكرمُ الوجوه ، وجاهُك أعظَمُ الجاه ، وعطيّتُك أفضلُ العطيّة ، وأهنَؤُها ، تُطاعُ ربَّنا فتَشْكرُ ، وتُعْصَى ربَّنا فتَغْفِر ، وتُجيب المضطَر ، وتكشف الضّرّ ، وتَشْفي السقيم ، وتغفر الذَّنْب وتقبل التوبة ولا يجزي بآلائك أحد ، ولا يبلغ مدحتك قولُ قائل) .

اللهمّ صلّ على سيدّنا محمّد صلاة تنجيّنا بها من جميع

الأهوال والآفات ، وتقضي لنا بها جميع الحاجات ، وتطهّرنا بها من جميع السّيئات ، وترفعُنا بها عندك أعلى الدرَّجات ، وتبلّغنا بها أقصى الغايات ، من جميع الخيرات ، في الحياة وبعد الممات ، وعلى آله وأصَحْابه وأتباعه ، وسلّم .

قال علي الكيزواني ـ وهو من رجال القرن العاشر الهجري ـ :

(رضُوا من الفقر بالرئاسة والشهرة بالزوايا والأعلام والخَلْوة والأسماء ، وغير ذلك ممّا هم عليه والغالب منهم فيه ، على غير بصيرة ، بدليل عدم النصيحة ، وهم يعلمون أنهم مسؤولون عن ذلك ، وهم يتساهلون فيه ، فربّما كان الشيخ لايعلم شيئاً مما يجب عليه للّه في حقّ نفسه ولا في حقّ غيره ، وإنّما مثالهم مثال أعمى يقود أعمى ، وفاقدُ النور كيف يستنير به سواه ؟) [الأقسام العشرة أو الرسالة الكيزوانية (مخطوطة بيد أحمد الأرمنازي سنة ١١١٤ هـ) ص ١١] .

وقال الشيخ علي محفوظ في كتابه : الإبداع في مضارّ الابتداع (الفصل الثامن : في بدع الطُرق) : العمدة في تقرير هذه البدع إمّا مخالفة ماعُرِفَ عن سنة رسول الله ﷺ والقرون المشهود لهم بالخير . وإمّا عدمُ اتّباع ما رسمه سلفُ مشايخ الطريق من قوانين تربية النفوس وتهذيبها ، وهم (أي أصحاب الطرق كالجيلاني والرفاعي والشاذلي ونقشبند) لم يخرجوا في وضع هذه القوانين عن الشريعة الغرّاء قِيْدَ شعرة .

فمن هذه البدع السيئة أنك ترى أرباب الطُرُق في هذه الأزمان إذا جاءهم المريد فأوّلُ شيء يُلقونه إليه من تعاليمهم إيقاعُ الفُرْقة بينه وبين إخوانه المؤمنين ، يذمّ له مشايخ الطرق الآخرين ، حتى يبعثه على الاعتقاد بأن فضل الله لم يجد مُناخاً سوى شيخه ، ثمّ يذمّ له علماء الدين من أهل الظاهر حتى يعتقد أنهم لايصلحون للاسترشاد ، وهذا من أخصّ علامات المبتدعة . قال الإمام الشعراني : (وسمعت أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : (من علامة المتشيّخين

بأنفسهم بالدعوى عدم صفاء قلوبهم (بعضهم لبعض) لأن كل واحد منهم يعتقد في نفسه أنه هو الشيخ الحقيقي ، وأنَّ أخاه هو المدّعي للمشيخة بغير حق ، ويصدّقه أصحابه على ذلك ، وفي الآخرة يصلح الله بينهما ، ويكشف لكل واحد منهما أنه ليس بشيخ ، ولا شمّ للطريق رائحة) انتهى .

ومن بدعهم المحرّمة أنهم خرجوا عن الذكر الشرعي إلى ذِكْرٍ محرَّف يخالف الكتاب والسنة والإجماع . . وفي خزانة الأسرار مانصُّه : (وكذا بعض أهل الذكر يزيدون حروفاً كثيرة في كلمة التوحيد ، كأنهم يقولون بزيادة الياء بعد همزة (لاإله) وبزيادة الألف بعد هاء إله . مثالهما : (لاإيلاها) . وبزيادة الياء بعد همزة(إلا) وبعد إلا بزيادة الألف ، مثالهما : (إيلا الله) وكلها حرام بالإجماع) [الإبداع في مضارّ الابتداع (ألّفه علي محفوظ سنة١٣٤١هـ ١٩٢٢م) مطبوع في مطبعة الاستقامة) ص٢٩٥ ومابعدها] .

وقال عبد الدايم أبو العطا البقري تحت عنوان (دور

الحلــول والاتحــاد) : رائــد هــذا الــدور هــو حسيــن الحلاّج . . الذي أُعْدم في سنة ٣٠٩هـ /٩٢٢م/ لأنه نادى بمبادىء صوفيّة فلسفية متطرّفة ، فحوكم أيام الخليفة المقتدر ، وكانت قائمة اتهاماته :

١ ـ مراسلاته السّرية مع القرامطة أعداء الخلافة والدّين .

٢ ـ إعتقاد طُلاّبه بألوهيّته .

٣ ـ قوله : أنا الحقّ أي أنا الله . قوله : إن الحجّ ليس بفرض ديني عام [التصوف الإسلامي بين الفلسفة والدين (مكتبة الخانجي) ١٩٥١) ص١٢] .

وقال عبد القادر الجيلاني (٤٧٠ ـ ٥٦١هـ) :

« ويحك ، تقعدُ في صَومعتك ، وقلبُكَ في بيوت الخلق منتظرٌ لمجيئهم وهداياهم ! » « الدنيا حجابٌ عن الآخرة . . لاتلتفتْ إلى الخَلْق ولا إلى الدنيا ، ولا إلى ما سوى الحقّ عزّ وجل » [الفتح الرّبّاني (مطبعة الحلبي بمصر ١٣٨٠هـ) ص٧٤ و٧٥] .

وقال أبو العباس زرّوق : (فلا تصوّف إلاّ بفقه ، ولافقه إلا بتصوّف . .) ومنه قول مالك رحمه الله : « مَنْ تصوّف ولم يتفقّهْ فقد تزندق ، ومَنْ تفقّه ولم يتصوّفْ فقد تفسّق ، ومَنْ جمع بينهما فقد تحقّق » . وأصل التصوُّف مقام الإحسان الذي فسّره رسول الله ﷺ بـ « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [قواعد التصوّف (ط٢) ٤ و٥] .

لا يخفَى أنّ مُرادي من إيراد هذه النصوص الانتقاديّة هو أنْ أوضح أن ما أخذه غير المتصوّفة على بعضهم من مخالفات للمنهج الصحيح ليس مقتصراً عليهم ، بل سبقهم إليه ، واشترك معهم فيه ، أعلام التصوف الإسلامي أيضاً . ولعلّ من الخير أن أورد هاهنا ماقلْته من قبل في (الكتابة الفنية) :

« . . ومن الحقّ أن كلمة تصوّف لم تكن جارية على ألسنة المسلمين في عهد النبوة وصدر الإسلام ، كما أنّ التصوّف لم يختصّ به المسلمون وحدَهم ، إذْ كان من

قبلهم في اليونان والهند وفارس ، وعند اليهود والنصارى ، متصوّفة كثير .

غير أنّ الدين الحنيف لم يَحْظر اشتقاق كل كلمة لم تكن في عهد النبوّة وصدر الإسلام ، ولم يَنْهَ عن استعارة كلمات أخريات ، وتسميات مُحْدَثات ، وأيضاً فإن التصوّف إذا كان معروفاً من قبل ، فلقد كان يتلوّن لدى كل أمّة بألوان عقائدها وأصباغ أعرافها وتقاليدها .

وإذاً لا ضيرَ أنْ لم تكنْ كلمة (التصوّف) في عهد النبّوة وصدر الإسلام ، إذا كان الجديد فيها هو اسمها ، وكذلك لا ضير أن تعرف الأمم السابقة التصوّف ، ما دام التصوّف الإسلامي لايخالف الباطن فيه الظاهر ، ولاتغاير الحقيقةُ الشريعة .

ومادا يقول القائلون في طريقة (طهارتُها ، وهي أوّل شروطها تطهير القلب بالكُلّية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكُلّية في الله) .

وأهم خصائص هذه الطريقة مجاهدةُ أهواء النفس

وعلائِقها ، وإصلاح القلوب وإفرادها لله عمّاسواه ، وهي تلتمس ذلك باكتساب علوم الشريعة ، وتجريد الهمّة للعبادة والسهر ، وتَخْلية القلب من شواغل الدنيا ، وتحليته بالإخلاص والتقوى والمراقبة والورع والزهادة والتوكّل والحبّ والرضا .. حتى يتلقّى السالك من المكاشفات والأحوال والكرامات والإلهامات ، وتتجلّى عليه المعرفة ، ويحظى بالولاية . وعلى طول هذا الطريق لا يقبل واردة ولا خاطرة ولا نكتة إلاّ بشاهدَيْ عَدْلٍ هما الكتاب والسّنّة .

ولكن ماظهرتْ حقيقة قطّ في الوجود إلاّ قوبلتْ بدعوى مثلها ، وإدخالِ ما ليس منها عليها .. وهذا حال التصوّف الإسلامي ، فقد انتسب إليه كثيرون اتّخذوا علم الحقائق والرقائق وسيلة لبثّ جهالاتهم ، ونشر بِدَعهم وضلالاتهم ..

وبالجملة فكلّ مالم يخرجوا فيه على الدين الإسلامي فهو تصوّف إسلامي .. وكل ماخرجوا فيه على الدين

الحنيف ، فإنَّه يُسلك في التصوّف غير الإسلامي أو التصوّف الفاسد ، ويشمل ذلك ثلاث مهلكات . أولاها محاولة تأليه الإنسان . . وثانية المهلكات بدع وضلالات ما أنـزل الله بهـا مـن سلطـان ، منهـا قـولهـم بسقـوط التكاليف . . (و) تفضيل الولاية على النبوة ، والذهاب إلى أن علم الباطن حاكم على الظاهر . . وثالثة المهلكات ما فعلوه من شَطْط (شطح) وتخريف » [محمد حسني مصطفى ناعسة : الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري (مؤسسة الرسالة) ٣٤٩ وما بعدها) .

من الخطأ إذاً أنْ يرفُض فريق من المسلمين التصوّف جُمْلة وتفصيلاً ، دخيلاً وأصيلاً ، دونما تمييز ، ولعلّهم لو نظروا بعين النَّصَفة إلى دعاة المشرب الذي يرتضونه ألاّ يعدموا هناتٍ وشِياتٍ وملاحظاتٍ يأخذونها عليهم .

وليس من ذي قول ـ سوى الله عزّ وجلّ ورسول الله ﷺ ـ إلاّ يُؤخذ من كلامه ويردّ ، ولو أنّ ذا المشرب

السلفي أخذ من آثار المتصوّفة ما يطمئنّ إلى موافقته الشريعة ، وترك ماسواه ، ولو أنّ ذا المشرب الصوفي قَبِلَ من آثار المتسلّفة كذلك ما يطمئنّ إلى موافقته للشريعة لنهض المسلمون ، لقد كان الإمام مالك بن أنس يقول : إنّما أنا بشر أخطىء وأصِيب ، فانظروا في رأيي ، فكلُّ ما وافق الكتاب والسّنّة فخذوه ، وكل مالم يوافق الكتاب والسّنة فاتركوه . وقال الإمام الشافعي : كل شيء خالف أمر رسول الله ﷺ سقط ولايقوم معه رأي ولا قياس ، فإن الله تعالى قطع العذر بقوله ﷺ ، فليس لأحد معه أمر ولانَهي .

وهذا الكتاب : (النظام الخاصّ لأهل الاختصاص) وهم السّالكون سبل العبادة والإحسان من المتصوّفة ، على منهج خاتم المرسلين ﷺ ، بهمّة عالية ، وحكمة بالغة ، وعقل نافذ ، ونخوة واستقامة ، ومجاهدة وعزيمة ، ممّا أفاض فيه الإمام أبو العلَمين السيد أحمد الرفاعي (٥١٢ ـ ٥٧٨هـ) وجعل ختامه الحثّ على اتباع السنة المطهّرة ، والإشادة بالإسلام الحنيف . وكنت قد سردتُ

جملة من أخبار الإمام الرفاعي وسيرته في مقدّمة كتابه :(حالة أهل الحقيقة مع الله عزّ وجلّ) [نشرته دار القلم العربي بحلب] فلا أرى حاجةً إلى تكرارها هنا .

وكان الإمام جلال الدين السيوطي المتوفَّى سنة ٩١١ هـ واسمه عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر ، وكان مفتي الديار المصرية ، وله قرابة ستمئة كتاب ، كان قد أفرد رسالة خاصّة (فيما منّ الله به على وليّه السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه من تقبيل يد النبي ﷺ) سماها : (الشرف المحتّم) فألحقتُها بهذا السّفْر . وعلى الله قصد السبيل .

محمد حسني مصطفى

مقدمة المؤلف

الحمد لله تمجيداً لذاته المستحقّة الحمد[1] والصلاة والسّلام على نبيّه ورسوله السيّد الكريم محمّد ، صاحب لواء الحمد ، وعلى آله وأصحابه الثابتين على العَهْد ، والمُوفِين بالوعد .

أما بعد ، أيْ[2] سادة ، ذَرّاتُ الحادثات[3] مَحكومة

---

(١) يجوز في كلمة الحمد أن تجرّ على الإضافة لكلمة (المستحقّة) ، ويجوز أن تنصب على أنّها مفعول بها .

(٢) أيْ : حرف نداء ، للقريب .

(٣) الحادثات : اسم فاعل يراد به اسم المفعول (المُحْدَثات) أي المخلوقات .

لسلطان الخالقيّة ، ومنها العالَم الإنسانيُّ ، فهو مرؤوس مَقْدورٌ لذلك السُّلطان الرّبانيّ ، وهو في قبضته ، وكلٌّ فرد منه مملوك لبارئه ، عبدٌ له سبحانه وتعالى ، حُرٌّ بالنسبة إلى غير الباري تعالت قدرته ، والناسُ في مرتبة المملوكيّة ومنزلةِ العَبْدية له سبحانه سواءٌ فكلَّما صحَّتْ نسبةُ العبد إلى سيّده ـ جلَّتْ عظمته ـ ارتفع في مقام عَبْديّتَه عن إخوانه في نَوْعه وعلا عليهم ، حتى إذا صار له من السلطان الإلهي معنى ترأّس به ، لابنفسه ، على غيره . وسَعَةُ أمر رياسته هي بنسبة[1] المعنى الحاصل له من قُدُس بارئه جلّ وعلا .

هؤلاء المرسلون في النبيين أعلى منهم رتبة ، وأوسعُ رياسة[2] .

---

(١) بنسبة : بمقدار .

(٢) مرتبة الرسل الذين اجتباهم الله عزّ وجلّ أعلى من أيّ مرتبة يحوزها غيرهم من الأولياء والصّدّيقين والشهداء والصالحين . وقد عدّ ابن حجر الهيتمي من أنواع الكفر والشّرْك ادّعاء أنّ الوليّ أفضل من النبيّ [الزّواجر عن اقتراف الكبائر (دار الحديث) ١/ ٥٥] .

هؤلاء أولو العزم في المرسلين ، أرفع مقاماً ، وأعم أمراً[1] .

هذا سيّدُ أُولي العزم نبيُّنا البَرُّ الرَّحيم صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين ، فهو في أولي العزم أعظمُ مكانةً ، وأشملُ دعوة ، وأوسعُ دائرة ، وأتمّ حكماً ، وأبلغ حُجّةً ، وأمنع سلطاناً ،[2] لِما حَصَلَ له من جليل المعنى القدسيّ فوق غيره من إخوانه النبيّين والمرسلين ، صلواتُ الله عليه وعليهم أجمعين[3] .

☆ ☆ ☆

(١) أولو العزم من الرسل خمسة ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم .

(٢) قال إبراهيم اللّقاني :

وأفضلُ الخَلْقِ على الإطلاقِ نبيُّنا فمِلْ عن الشّقاقِ

(٣) قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] وقال سبحانه : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ . [البلد : ١ و٢] .

ورثة الأنبياء :

وعلى هذا ، فالأمر النافذ القائم المحكَّم في عوالم الإنسان ، هو الأمرُ الإلهي ، والقائمون به بالتقليد الرَّبّاني : الأنبياء والمرسَلون ، وعنهم العلماءُ بالله حكماء الدين ، الذين هم ورثة الأنبياء(١) ، وزِمامُهُ بيد نائب النبوّة في كل عهد وزمن ، به يصولُ ويجول ، ويفعلُ ويقولُ ، وتخضع له الفحول ، وله الرياسةُ العامّة في مقام النيابة المَحْضة الجامعة ، وبعده فالقوم أرباب البصائر ،

---

(١) عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق ، فقال : ما أقدَمَك يا أخي؟ قال : حديث بلغني أنك تحدّثه عن رسول الله ﷺ ، قال : أما جئتَ لحاجة؟ قال : لا . قال : أما قدمْتَ لتجارة؟ قال : لا . قال : ما جئت إلاّ في طلب هذا الحديث . قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (مَنْ سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنّة ، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم ، وإنّ العالم ليستغفر له مَنْ في السموات ومنْ في الأرض ، حتى الحيتانُ في الماء ، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إنّ العلماء ورثة الأنبياء ،(و) إنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولادرهماً ، إنمّا ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر (الترمذي : أبواب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، رقم ٢٦٨٣) .

المندرجون في ذيل العلم بحال النبوّة ، وسِرّ الخَلْق ، وحُكِم الخالقيّة ، فلهم كلٌّ بنسبة حِصته ـ رياسةٌ على مَنْ دونه من إخوانه ، يعلّمهم ، يزكيهم ، يَرْفُق بهم لتعليمهم ، يَغْلُظ عليهم لتأديبهم ، يسوقهم إلى بساط العِلمِ وحضرة الفَهْم ، لينقذَهُم من وَهْدة الجهل ، مِنْ أسر الانحطاط عن هذا السّرّ ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، من ظلمات سُفُول الطبع ، ودناءة الهمة ، وقِصَرِ النظر ، وسُقْم الغاية ، إلى نور شرَف الطَبع ، وعلوّ الهِمَّة ، وصحّة النظر ، وجليل الغاية ، فيقوّم اعوجاجهم ، ويُصلح احديدابَهم ، وتَذْهَبُ طَمْسَةُ فشَلِهم ، وتنطمس ثورةُ ذلّتهم[1] ، العِزَّةُ لله ولرسوله وللمؤمنين .

---

(١) بَدهيّ أن يكون للناس مراتب تتناسب وأوضاعهم وكثير من المسلمين يعبد ربّه ويرجو رحمته ويخاف عذابه ، ويطمع أن يحظى برضاء الله تعالى ، ويستغفرُه من حُوبِهِ ، ويسأله حسن الختام في الدّنيا ، والفردوس الأعلى في الآخرة . ويقتصر أولئك على هذه العلاقة اللاحِبة بين الرّب والعبد . لكنّ فريقاً من السالكين يذهبون أنَّ ثمة قُطْباً أو غوثاً هو خليفة الله تعالى في الأرض ، ويليه في المرتبة إمام الملكوت ، وإمام المُلْك ، والأوّل موكّل بالغيبيات ، والآخر بالنظر في الكون ، ويعقب هذه الطبقة العليا عدّة طبقات من الأولياء : =

أبناء الجنس الواحد :

لا تزعم ـ أيْ أخا الحجاب[1] ـ أن أخاك الإنسان الآخر عبدك بدريهماتك ، بوقتك ، بحظّك ، بشأنك ، بما أنتَ فيه من أمرك ، هو فوق ذلك ، وأنتَ دون ذلك .

كل من ساواك بتركيب الهيكل ، أوْ ماثَلَك بالصورة والنسق ، فهو أخوك بجنسيتك ، شريكك بآدميتك ، لا هو مملوكك ، ولا أنتَ مالكه .

وكلُّ من خالفك بتركيبك ، فهو مُلْحَقٌ بجنسه ، حَقُرَ أو عظم ، وأنت مُلْحَقٌ بجنسك ، فاعرف حدَّك ، ولا تبقَ وحدَك .

= أمناء السر وهم سبعة ، ثم الأوتاد الأربعة وهم نوّاب القطب ، ثم النُّجَباء أو الأبدال ـ وهم أربعون ـ فالنقباء ، وتعدادهم ثلاثمئة .
ودَيْدَنُ هؤلاء جميعاً مراقبة النواحي الدّينية في الناس ، وتهذيبها والارتقاء بها ، وكلّ منهم عبدٌ لله ، لاينفع ولاهو يضرّ ، بَيْدَ أنّ خصوم الصوفية ينكرون هذه المنازل ، ويرمون أصحابها بادّعاء تدبير الكون والتصرّف فيه ، ويصفونهم بالمروق من أجل ذلك .

(١) المحجوب عن معرفة الحقّ .

مُلزِمةٌ لك ، وحاكمة عليك بالانضمام إلى أبناء جنسك ، والاستئناس بهم ، وقاضيةٌ على طبعك بالأدب مع صنوف أجناس الأشياء ، من ذوات أرواحٍ ، وجمادات بارزات ومطويّات ، عُلْويّات وسفليات[١] .

العلم بالله والإسلامُ :

فاجمع رأيك على العلمِ بالله ، لتعلوَ في مرتبة آدميتك بين جنسك ، ولتزكوَ في نفسك ، ولا تكن قليل العِبرة ، خاملَ الهمّة ، قصير النظر .

انظر حكمَ ربك ، سِرْ بروحك ، سَيِّرْ همَّتَكَ في مُلْكه سبحانه ، اعتبر بمصنوعاته ، قال تعالى : ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[٢] .

---

(١) إذا فكّر المرء عرف أنّ له علاقات مع ربّه ،ومع الناس أمثاله ، ومع مافي هذا الكون من مخلوقات ، وجمادات ، ومع نفسه . والدين الحنيف قد أبان سبل العلاقات هذه حين تكون صحيحة ، وحين لا تكون كذلك .

(٢) الحشر : ٢ .

القضاء والقدر :

استَرَقَّ[1] أمرُه أقواماً ، هم لولا أن استرقَّهم أمرُه أحرارٌ ، خالفوه فأوقعهم في وهدة الرِّق ، استعبدهم عصيانهم ، أذلهم طغيانهم ، فخذ بهمتك العلية طريق الاستسلام له مَحَجَّة[2] وسِرْ إليه أميناً من غيره ، لا تقل : قَدَرُهُ أوقفني عن السير إليه ، هذا من بَطالتك ، من كسل عزمك ، وفتور عزيمتك .

اجعل القضاء والقَدَر صفّاً ، وابعث معهما : رأيك ، وحَزْمك ، وأملك بربّك واعتمادك ، وأقِمْ بين الصفين حرْب العمل ، وكن أنتَ في صفّ العَقْل والتدبير ، المؤيد بحسن الظن بالله ، وبصدق الاعتماد عليه سبحانه ، فإذا انكشف غبار ذلك الحرب عن غلبة لك في أمرك ،

---

(١) استَرَقّ : استعبد ، أوقع في الرقّ .
(٢) محجّة : طريقة ، طريق . والاستسلام لله تعالى هو الإسلام .

فقد أثمر غصنُ أمَلِكَ بربك ، وحسن ظَنّك به ، وصدْقُ اعتمادك عليه ، ففزْتَ بمطلوبك[١] .

وإن انكشف الغبار عن مغلوبيّة لك في شأنك[٢] ، فقد

---

(١) (يُنْبق إلى أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة في الأعمال ، وأنّ ماقضاه الربّ سبحانه ، وقدَّره لابّد من وقوعه ، فتوسّط العمل لافائدة فيه . . القدرُ السابقُ لايمنعُ العمل ولايوجب الاتّكال عليه ، بل يوجب الجدّ والاجتهاد . . وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيويّة ، بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات ، فهكذا المصالح التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم . . وقد يسّر كلاً من خَلقه لما خَلقَه له في الدنيا والآخرة ، فإذا علم العبد أنّ مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشدّ اجتهاداً في فعلها من القيام بها منه في أسباب معاشه ومصالح دُنياه) (ابن قيّم الجوزية : شفاء العَليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، الباب السابع : في أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لايقضي ترك الأعمال ، بل يقتضي الاجتهاد والحرص . ص٢٤ ومابعدها (المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢٣ هـ) . .

(٢) مغلوبية : مصدر صناعي من اسم المفعول (مغلوب) يريد أنّ المرء إذا تبصّر وأخذ بالأسباب ، وبالعمل والتدبير . . ثمّ وقع عليه قضاء ربّه وقدره المُبْرَم ، فلا تثريب عليه ، وإن الله تعالى سيجزيه إنْ هو صبر على ما ابتُلِي به ، خير الجزاء ، ويشكر له سعيه ، وأيضاً يواسيه عباد الله الصالحون ، ويعلمون أنّ الله تعالى ابتلاه ليرفعه عنده درجات ودرجات . وليست كلّ المصائب التي تنزل بنا نِقَماً ، بعضها نِقَمٌ ، =

انكشف لك غطاء القَدَر ، وأنت حينئذٍ معذور ، وسعيُك مشكور ، وعملك عند الله تعالى وخاصَّةِ عباده مبرور .

تأثير اللسان ودَوْرُ الكلمة في الحياة وبعد الممات :

الله ، الله ، بِكَ ، أوصيك بكَ أيُّها العاقل ، فإنّك خزانة من خزائن الرحمن ، عظيمٌ عندَ مَنْ صورك إنْ عظَّمْتَ ذاتَك وعرفتَ شرفَها ، قد امتازك ربّك بالعقل ، ورفع به درجتك على مَنْ هو دونك ، وأعطاك لساناً يقذف دُرَرَ الحِكْمة إلى سامعيه ، فيختَلِبُ بها قلوبهم ، ويَشْغَل ألبابَهم ، ويعقدُ هِمَمهم ، ويوقفُهم عند حدودهم ، ويجمعُهم على صعيد القَصْد ، فلا تستصغرْ شرَفَ الكلام ، وتهمل مرتبته التي هي أعلى المراتب المتدلّية من العلى ، تدلّياً إلى العالم الأدنى .

= وبعضُها ، إذا نظرْنا إلى أجره واحتَسَبْناه ، نِعَمٌ ، والأمور بخواتيمها ، وأشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ، ثمّ الصالحون : الأمثل فالأمثل ، ونسأل الله عزّ وجلّ العفو والعافية في ديننا ودنيانا وأهلنا وعرضِنا ومالنا .

هذه :(أ . ب . ت . ث . ج . ح . خ . د . ذ . ر . ز . س . ش . ص .ض . ط . ظ . ع . غ . ف . ق . ك . ل . م . ن . هـ . و . لا . ي) .

هي حروف التهجّي ، ورابطةُ نَظْمِ الكلام ،وكتابُ الله المنزل على آدم عليه السلام ، والكلامُ سيفُ الله الذي يجمع به ويُفرِّق ، ويُبغِّضُ به ويحبِّبْ ، ويفعل به العجائب ، تَصلح به القلوب ، ترتبط به الأسرار ، تلينُ بسببه الخواطر ، تحصل به الألفة والمودَّة ،تُشَقُّ به العصا ، تنحدر من موجته سيولُ الفتن ، تنطلق بسَيَّال محدوره غوائث غُثاءِ المِحَن ،تنشط بهمّة أساليبه الهمم ، ترتفع بنهضته العزائم إلى حضرة القرب ، تنحدر بجاذبيّته المواهب إلى حظيرة القَلْب ، ووراءه السيف المُصْلَت ، إذْ هو مخبأ في طيه يُلْقَى هو أولاً ، ويقوم له السيفُ ثانياً ، فهو مِنْ آلاته ، من موادّه ، يعمل له ليرجع النظم إليه .

كلمة يقولها القائل ، وهو كافر زنديق ، فيقف بها في صف المؤمنين الموقنين .

وكلمة يقولها القائل ، وهو مؤمن وثيق ، فيقف بها في صف الكافرين الجاحدين(١) .

ببيعتك أيها اللبيب على اسم ربك ، بعهدك على طريق نبيك ، تتصدر في محاضر القدس ، هي كلمة قُلْتَها ، ووقفتَ عندها ، فدخلَ في القوم الذين ألزمهم : ﴿ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾(٢)

---

(١) إذا نطق كافر بالشهادة ،وهي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) انقلب مؤمناً ، وترتّبتْ عليه أحكام كثيرة ، حتى لو كان قالها مُزاحاً فما هو بمُفْلِتٍ من تَبِعاتها ، فلو قالها نصرانيّ ـ مثلاً ـ لصاحبٍ له مسلم ، مجاملةً ، فإنّه إن مات لايُدْفن في مقابر النصارى ، ولايرثُونه ، وإن بقي بعدها على نصرانيته ولم ينتظم في المسلمين عُدّ مرتدّاً ، وحُدّ بذلك . وعلى العكس إنْ تورّط مسلم بكلمة حرّم بها حلالاً ، أو أحلّ حراماً ، أو كفَر بهابالله تعالى ،أو طعن بالقرآن الكريم أو بنبيّنا ﷺ ، أو جوّز بعثة نبيّ بعده ، أو قال إن النبوة مكتسبة ، أو يمكن الوصول إليها بتصفية القلب ،أو قال :الوليُّ خير من النبيّ ، أو ذمّ أحداً من أنبياء الله أو الملائكة ، او قال لمسلم : ياكافر ، أو سمّى الله على محرّم كالخمر استهزاء ، أو قال : لاأخاف القيامة استهزاء ، أو قال : اليهود خير من المسلمين ، أو قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، أو قال إن الله تعالى يحلّ في صورة حسنة ، أو قال : سماع الغناء من الدّين .. (ذكر كلّ هذه المكفّرات العلاّمة ابن حجر الهيتمي في الزواجر ١/ ٥٤ وما بعدها) .

(٢) الفتح ٢٦ .

الكلامُ الذي ينطق به لسانك ، ويأتي بمركَّبِه فمك ، آيةُ قلبك ، خزانةُ سرّك ، مجموعُ شرائف عينيّتِك[١] ، موادّ صفاتك ، نظم كليّات ذاتك ، أفرغت كليتّك فيه ، بعد أن خرج مِنْ فيك كُتِبَ عنك ، بل كَتَبَكَ على الرِّقاع ، نَقَلَ عنك ، بل نقلك إلى الأسماع ، أطافك في الأفواه والصِّحاف ، أقامك في المجالس والدواوين ، أثبتَك في القلوب والعيون . كُن شريفَ الكلمة ، شريف الهِمّة[٢] .

☆ ☆ ☆

---

(١) عينيّة : مصدر صناعي من عين بمعنى ذات ، من باب تسمية الشيء باسم بعضه . وأهل الشام والعراق يستكثرون من استعمال المصادر الصناعية .

(٢) عن بلال بن الحارث المزنيّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله عزّ وجلّ ، مايظنّ أنْ تَبلغ ، يكتب الله عزّ وجلّ له بها رضوانه إلى يوم القيامة . وإنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة من سَخطِ الله عزّ وجلّ مايظنّ أن تبلغ مابلغت يكتب الله عزّوجلّ بها عليه سخطه إلى يوم القيامة) [مسند أحمد (حديث بلال ابن الحارث المزني رضي الله عنه) ١٥٧٩٦/١٢] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة لا يرى بها بأساً يَهْوِي بها سبعين خريفاً في النار) ، (الترمذي : الزهد ، باب فيمن تكلّم بكلمة ليضحك بها الناس ، رقم ٢٣١٥) .

الفلسفة :

أخا الحكمة ، لاتُمِطْ نقاب الحكْمة بالوهم ، وتعمل كالفيلسوف الذي جرد الحكمة عن شرفها ، إذْ كساها بأسم الفلسفة غير كسوتها .

أجل ، كن حكيماً وانطق بالحكمة ، وإياك والتفلسف فإن منه طُرُقَ وَهْمٍ تدفع إلى غير سبيل الصواب ، لتُوسع لطائفَ الخيَال ، في مجالات التنفيذ والتطرّق ، بما لايقفُ به العقل ، طلباً لزبدة المطلب ، والقصد على ماهو عليه حسنٌ .

ولكن جَرَّدَ كلامَ الفيلسوف للسامع من كلمة الحق باطلُ نفس المتكلّم ، قَصَدَّ بالمجرَّد عن الحكمة ، وجرّدَ كلامَ مَنْ ظن به الخير منِ كلمة الباطل حقٌّ حُسْنِ الظن ، فربَطه حسن الظن بهذرته[1] .

---

(١) شطَّ الفيلسوف عن الحكمة عندما خلع عن كلامه لبوسها ، متّبعاً غروره وعُجبه بنفسه ، وهواه ، فصار كلامه هذراً ، لا طائل وراءه ، ولا جدوى فيه ، فأساء بذلك إلى الحكمة ، وإلى نفسه ، وإلى من =

فياليت الفيلسوف طمَسَ باطلَ نفسه ، ولزم الحكمة فقام لها ، وقال بها ، ونفع الناس .

وليتَ من ظن به الخير ، مَحَقَ باطلَه فَأَخَذَ بحبل الحكمة وغسل صحيفة سره من زُوره وبهتانه ، وتمسّك بأذيال الحكماء ، فانتفع بهم ، ونفع بعلمهم الناس[1] .

تأثّر به ويقال : هذِر كلامه إذا كثر فيه الخطأ والباطل . والهذَرُ : سَقَطُ الكلام .

(١) تنقسم معاني كلمة الحكمة كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود إلى قسمين : أحدهما : مايبدو في السلوك الخارجي من سداد في الرأي ، واتّزان في التفكير ، واتّجاه في السلوك إلى الطريق الأقوم . والثاني هو الناحية الإشرافية الإلهامية . . . فالحكمة عبارة عن المعرفة بالله التي تتضمّن المعرفة بالخير) [التفكير الفلسفي في الإسلام (ط٣) ٢٣١ وما بعدها] : وكانت ترجمة الكتب الفلسفية قد نشطت منذ عصر المأمون ، وترجمت أيضاً كتب علميّة ، فأراد حكماء الإسلام ألاّ يغترّ الناس بفكر غير المسلمين ، واعتقاداتهم ، لما يرون لهم من تقدم ثقافي ، فأرسطو ـ على سبيل المثال ـ عالمٌ بالطبيعة والأدب وثقافته عالية ، ولكنّه من الناحية الدينية ذو ضلال مبين ، فليس من الإصابة قبول آرائه الدينية ، ولا قبول آراء الفلاسفة اليونان الآخرين ، وكيف يرتاح مسلم إلى اعتقادات وثنية مُشْركة تؤمن بآلهة مزعومة كثيرة ، وتذهب إلى أنهم يتناسلون ويختصمون .. وهذا سرّ ثورة الإمام الغزالي رحمه الله على الفلاسفة المحرّفين ، وعلى من حاول التوفيق بين مقولاتهم وبين الإسلام ، كما صنع ابن سينا ، وقد أودع أبو حامد =

ومن العجائب ، فَقَدْ يفجر الرجلُ بنفسه ، ويصون سرّ الحكمة ![1] فيؤيد الله به أمره ، ويُعِزُّ به جنده ، قال رسول الله ﷺ - في غزوة خيبر - :

(قُمْ يَا بِلَالُ فَأَذِّنْ أَنْ : لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلاَّ مُؤْمِنٌ ، وإنَّ الله يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ)[2] .

= الغزالي جملة آرائه في كتابه (تهافت الفلاسفة) ، ودحض فيه حججهم ، وأثبت أنّ ما وصل إليه سقراط لم يكنْ مقنعة لأفلاطون تلميذه ، وهذا بدوره لم يُقنع تلميذه أرسطو بكثير من مسلّماته ، فالحكمة الراشدة هي تلقّي الدين عن طريق الوحي ، والإمام الرفاعي يشارك الإمام الغزالي - كما ترى - في حملته على الفلاسفة غير الإسلاميّن ، ومناهجهم .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الكلمةُ الحِكْمةُ ضالّةُ المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها) (الترمذي : العلم ، باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة ، رقم ٢٦٨٨) وهو في سنن ابن ماجه : الزهد ، باب الحكمة ، رقم ٤١٦٩ . وفيه : (. . حيثما وجدها) ورواه العسكري والقضاعي بلفظ : (كلمةُ الحكمة ضالّةُ كل حكيم ، فإذا وجدها فهو أحقُّ بها) (كشف الخفاء ١/ ٤٣٥ برقم ١١٥٩) . وروى أبو نعيم وابن عدي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (الحكمةُ تزيد الشريف شرفاً ، وترفع العبدَ المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك) (كنز ٤٤٠٨٨) .

(٢) كنز العمال ١٢٢٥٦ و٢٨٩٥٥ .

ماذا يفعل العاقل بِحِلْسِ البيت[1] ، من القوم الذين انتفخت أوداجهم بالدعوى ، ولاأثر لهم في الدِّين ؟

انتسب إلى خير أهل الأرض بهمّة عالية :

قال جابر رضي الله عنه : قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : (أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الأرْضِ)[2] وكنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة ، يريد الشجرةَ التي بايعهم رسول الله ﷺ تحتها ، المعنيةَ بقول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[3] .

فانظر أيها الأخ اللبيب كيف صحت الخيريّة ، لألفٍ وأَرْبَعِمَائَةِ رجل إذ ذاك ، دونَ أهل الأرض شرقِها

---

(١) الحِلْس : ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع . ويقال : فلان حلْسُ بيته : أي لايبرحه .

(٢) البخاري : المغازي ، باب غزوة الحديبية ، رقم ٣٩٢٣ (وانظر رقم ٣٣٨٣) ومسلم : الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ، رقم ١٨٥٦ .

(٣) الفتح : ١٨ .

وغربِها ؟ هل كان ذلك إلاَّ لأنهم تجرّدوا بأنفسهم وأموالهم لإعلاء كلمة الله تعالى ، وإعزاز دينه ؟ وعلى ذلك بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

وهل الدينُ إلاَّ كلمةٌ صادقة وهمّة عالية ؟ تَسقط همّةُ الرجل الماجد الكريم على كل شريفة ، وتسقط همة الخَبِّ[1] الدَّنِيء على كل ساقطة ، وربُّ الشبهة يتطرق الشبهة[2] ، والخيِّرُ لا يظنّ إلاَّ خيراً ، ولا تثِبُ به همّته إلاَّ إلى المعالي .

وعلوُّ الهمة من الإيمان ، والساقط الوضيع يريد الترفع بهمته ، فتغلِبُهُ نفسه ، فتَرَقَّعُ بنزْغها[3] ، وتتداعى همته

---

(١) الخبُّ : الخادع الغشَّاش .

(٢) يتطرَّق الشّبهة : يبتغي إليها طريقاً .

(٣) فترقَّعُ بنزعها : تمعن في ارتكاسها ، وتوغل في انتكاسها . ونَزْغ الشيطان : وساوسه وما يحمل به الإنسان على المعاصي .

ونَزَغَ بين القوم : أفسد . والنَّزْغُ : الكلام يقصد به الإغراء بين الناس .

ساقطة بطبعها ، ويرى لخباله[١] بمرآة خياله أنَّ تَرفُّعَ نفسه بنزْعِها عن الهمّة .

ثكلته أمُّه[٢] مافرَّق بين الوقاحة والرجاحة ؟ هل تستوي الظلمات والنور ؟

الهمَّة ترفع العبد إلى مقام السّرّ والنجوى .

همّةُ العارف بربّه ، الحكيمِ بنوره ، أرفع من العرش ، هاتِ ـ أيْ أسيرَ الدعوى ـ طَوْزَ هِمّتك ، وقِسْه على أطوار أهل الهمم ، واحكُمْ إنْ كنتَ من المؤمنين ، إن كنت من الصادقين .

اسْحَقْ بِرَحَى الحِكْمةِ دقيقَ شعير مُخيِّلتك ، لينسِف عنك دقيقاً تسفوه الرياح ، وإذن فاستنْقِ لطبعك بُرّاً[٣] نقياً ، من زرع الحكماء ، أعيان السلف ، وُرّاث نبيِّ الهدى ﷺ .

---

(١) الخبال : الفساد

(٢) ثكلته أمّه : فقدْته ، هَلَكَ .

(٣) بُرّاً : قمحاً . يدعوه لتكون همّته مثل همم السلف الصّالحين .

قال عليه أفضل الصلاة وأشرف السلام : (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ ، فَيُقَالُ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ ؟ فيُقَالُ : نَعَمْ فَيُفْتَحُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ : فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ فَيُقَالُ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ : فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ صَاحِبَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ؟ فَيُقَالُ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ)[1] .

تمسّك السّالكين بسنّة خاتم المرسلين :

هذا التحكّم سرُّ الوراثة المحمدية ، وسنتُه ﷺ قائمة ، وحكمتُه دائمة ، فلا تكنْ أيها الأخ الصَّالح محروماً من غنيمة سُنَّته ، ممنوعاً بِهَمٍّ واهمتِك عن مائدة حكْمتِهِ ،

---

(١) البخاري : الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ، رقم ٢٧٤٠ (وانظر الحديثين ٣٣٩٩ و٣٤٤٩) ومسلم : فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة رقم ٢٥٣٢ . وفئام : جماعة ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مثل جيش ونساء . فيفتح عليه : أي ببركة الصحابي أو التابعي ، أو تابع التابعي . وقال ﷺ : (خيرُ الناس قرني ، ثم الذي يلونهم ، ثمّ الذين يلونهم) (جامع الأصول ٨/٥٤٧ رقم ٦٣٥٥) وهو عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

فأنتَ إنْ أحيَيْتَ سُنَّةً من سُننه ، أو بَثَثْتَ حِكْمةً من حِكَمه ، فالفوزُ لك والبشرى المستمرّة ، لأنكَ صرْتَ من حِزْبه ، ودخلت في عداد خيرِ أهل الأرض خاصَّة ، وكنتَ معه غداً ، وهو يقول من حديث : (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا)[1] .

رابطْ في سبيل الله بمالِكَ ، بنفسك ، بعلمِك ، بعملِك ، بحكمتِك ، بهمتك .

الشريف من بني فاطمة ـ عليها السلام ـ قيَّده الشَّرْعُ لإعلان علو الهمّة له عن أكل الصدقة . قال النبي عليه الصلاة والسلام لأحد سِبْطيه الكريمين :

(أما عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ لاَ يَأْكُلُونَ صَدَقَةً ؟)[2] .

---

(١) البخاري : الجهاد ، باب فضل رباط يوم في سبيل الله ، رقم٢٦٧٥ ومسلم : الإمارة ، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ، رقم ١٨٨١ والترمذي : فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل الرباط ١٦٦٤ .

(٢) البخاري : الزكاة ، باب أخذ صدقة التمر عند صِرام النخل ، وهل يُترك الصبيّ فيمسُّ تمرَ الصدقة ، رقم ١٤١٤ . ومسلم : الزكاة ، باب=

وأهل الحضرة الإلهية يعملون بعمل آل محمد ، ويحثُّون الناس على العمل بعملهم ، تترفع هِمَمُهم عن البطالة والكسل ، ترفعهم النَّخْوة والغارة الفعّالة والمروءة المحمَّديّةُ إلى شقّ غبارالأكوان ، وخوض معامع الوجودات ، كل ذلك لله ولرسوله ولإعلاء كلمة الله في ملك الله ، بِحكَمٍ قاهرة ، وهِمَم زاهرة ، جمعت بين أمري الدنيا والآخرة .

وكذلك الموفّقون والمقرّبون والمحبّون ، وأولئك هم المفلحون ، بل أولياء الله المقبولون : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] .

= تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله ، رقم ١٠٦٩ . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة ، فجعلها في فيه ، فقال النبي ﷺ : (كخ كخ) ليطرحها . ثم قال ..) الحديث (البخاري : الزكاة ، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ ١٤٢٠) . كخ : كلمة تقال للصبي لزجره عن تناول شيء ما ، وهي بفتح الكاف وبكسرها ، وبتسكين الخاء أو تنوينها بالكسر ، وبإفراد كلمة (كخ) أو تكرارها . ليطرحها : ليلقيها من فمه .

(١) يونس : ٦٢ .

أخذ الله العهد على روح أحيمِد العبدِ اللآش أن لا تقف عند سفاسف الأمور ، ألا مَنْ علتْ في الله همّتُه ، علتْ عند الله مرتبته ، ومن وقف مع غرضه ، ماعوفي من مرضه ، ومن لم يصرعْ صنوفَ الحادثات بكفّ الطرْف عنها ارتياحاً لِمُوجدها وانبساطاً به فهو عن حلاوة الإيمان وعن مذاق شراب الهِمّة بمعزل[1] .

ولا يَخْطَفَنَّك حَثّي لك على عُلوِّ الهمة أنْ تهمل العلم بحال الضعاف والفقراء ، وحِرَفِهم وصنائعهم ، وما هم عليه من عاداتهم وأمور معاشهم ، فإنَّ العلم بذلك والعمل به والتحقّق بكلّه ، والوقوف على سرّه والترقّي فيه إلى ما لاغاية له ، إلاّ الشرعُ : إنّما هو من علو الهمة ، ومن بوارق أسرار النُّبُوة .

☆ ☆ ☆

(١) يتضح في هذا النّصّ تواضع سيدّنا الرفاعي ، ونصاعة أسلوبه ، وإشراق عباراته ، وتدفّق كَلِمِه في انثيال عذب ، وهو يسجع فيها أحياناً ، وأحياناً يرسلُها دونما سجع .

هؤلاء الأنبياء العِظَام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كلُّهم رعَوا الغنم ، ومنهم نبيُّنا سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم ، لتطرق طرائق الأمم ، والعلم بأحوال طوائفهم ، وللاقتدار على سياسة عوالمهم ، وللتدرُّب بالرِّفْق ومسالكه ، حتى بشأن الحيوانات الغير[1] الناطقة ، بل[2] وللتسلّق إلى نسج خِدر الهمة ، بالرفق العام في حقّ كل بارز وطامس ، عيني وغيبيّ ، ليكون ذلك السند رحمةً عامَّةً على خلق الله ، وبحراً فياضاً عذباً هنيئاً مريئاً يسح على ملك الله .

وهذا طريق الوراث ، الذين أثابهم الله الفتحَ ،

---

(١) ليس من الفصيح تعريف كلمة غير بأل ، ومثلها أيضاً كلمتا بعض وكلّ ، والكلمات التي تضاف تنحسر عنها تحليتها بأل إذا أضيفت ، وأغلب الظنّ أنّ تعريف غير بأل في هذا النصّ إنمّا هو من عمل بعض النسَّخَة الذين تعاقبوا على نقل هذا السِّفْر .

(٢) ومثل ماذكرته عن (غير) : (بل و) فهو من تصحيف النُسَّاخ ، والله أعلم ، إذ لا يتعاقب في لغتنا حرفا عطف .

وأوصلهم بحبال الرُّسُل ، وجعلهم نوّاباً عنهم ، وجمع عليهم أمرهم ، وحقّقهم بالتخلُّق بأخلاق دورة قلادة المرسلين ، وأكرمُهم على ربّ العالمين ، سيِّدُنا « محمد » ﷺ النبيِّ الأمين ، عليه وعليهم صلواتُ الْمَلِكِ البَرِّ المُعين :

وهناك يقدِرُ على إيضاح مايلزم للخلق في أمر معادهم ومعاشهم ، ويكون كالغيث ،أينَ وقع نفع ، والله وليُّ المتّقين ، وإليه يرجع الأمر ، ومنه العون والنصر ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ومن شمائل الدعاة أيضاً

شرفُ العقل بالإنصاف ، وإلاَّ فهو مغلوب لما تبرزه له النفس من غَرارة[1] الهوى .

وشرفُ الفهم بالإذعان ، وإلاَّ فهو محكوم لطارق الرأي ، وهو الدامغُ لباطل الحرص ، والأملُ حدُّ الحقّ ،

---

(١) الغَرارة (بفتح الغين) : الغفلة .

ومَنْ أخذه باطله فتَجاوَزَ به حدَّ الحقّ فهو غدَّار ، وأُمُّ هذه الآمالِ الكاذبة سَبْحةُ خاطر ، تجرّ الفكر إلى استحضار لذةٍ تطيبُ لها النفس ، وتفرح بها الشَّهْوة ، وتقفُ عندها العزيمة ، فهنالك يقودُ الفكرُ العزمَ فيخوض معامعَ الأغراض .

لو طَرَقَ طارقُ العزم بابَ السماء ولم تكنْ له آيةُ علم إلهي ، تَجْمَعُ به قوماً على الله فتنفعُهم في دينهم ودنياهم ، فليس بشيء .

ومن لم يَغَرْ على المحبوب فلا يرضى أنْ يسلك ذمُّه في أذنه فليس بمحبّ ، ولا الصديقُ إذا لم يَغَرْ على صديقه حتى لا يرضى أن يسلك ذمُّه في أذنه بصديق .

والنخوة سُلَّمُ العبد إلى سِدْرة منتهى المَجْد ، وفيها من ثورة الغيرة لله أُسٌّ كريم . والاستقامةُ وصفٌ لا يشتمل عليه إلاّ رداء كل عظيم . والعارفُ المحضُ يستقلّ الدنيا ، فلا يراها إلاّ دون شِراك نَعْله ، ويستعظمُ الأشياء

لموجدها فلا يرى إهمال شيء ، ردّاً بذلك الشيء إلى أصله .

هاتِ ، اجمع يا حكم بين هاتين ، وأنتَ إذاً الرجل العظيم[1] .

---

(١) يشير الإمام الرفاعي رحمه الله بكلمة (هاتين) إلى ما ذكره لتوّه عن العارف المخض ، فهو يستقلّ الدنيا فلا تغرّه مفاتنها ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يتكبّر على أيّ شيء فيها ، فلا يحتقر نعمةً صغيرة ولا كبيرة ، ولايفوته الاستدلال بأيّ شيء على صانعه ، ولا يعشو بصره عمّا في خَلْقِه من حِكَم ، والله عزّ وجلّ ماخَلَقَ شيئاً عبثاً ، وهذا معنى قول الإمام : « ويستعظم الأشياء لموجدها » .
وكما ترى فليس ثمّة تعارض بين هاتين المسألتين [الأولى : استقلال الدنيا ، والأخرى : استعظام الأشياء لموجدها] فالحكيم يزهد في الدنيا وما فيها من مظاهر جمال ، ورياش ومال ، ومباهج خلاّبة ، وزينة غرّارة ، يزهد فيها لأنها فانية لاتدوم ، ولأنها ليست غاية المسلم الذي لايبغي سوى وجه الله عزّ وجلّ ، ولا يسعى إلى غير رضوانه . وفي الوقت نفسه فإنّ الحكيم لا يستنكف أن يعتبر بأيّ شيء ، مهما قلّ ولو كان ذبابة ، أوليس في أحد جناحيها داءٌ وفي الآخر دواء؟ أوليس الله عزّ من قائل يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج٧٣] .

شُفْ[1] بباصرة علمك سيرةَ نبيك الأمين وآله الطاهرين ، وأصحابه الهداة المرضيّين ، فتحوا البلاد ، وصانوا العباد ، ومهّدوا السُّبُل ، وأفاضوا العدل ، ونظَّموا الأمور ، وأحكَموا حُكْمَ سياسة الأمم ، وهم أزهد الناس بالدنيا وأعراضها ، وأبعدُهم عنها وعن أغراضها .

سِرْ بين الحائطين : حائط العمل ، وحائط التسليم ، ورُحْ إلى عالَمِ جَمْعِك بفَرْقك ، ولا تجمعْ بين حَدَثك وقِدَم ربّك ، فإنّك إنْ فعلْتَ ذلك انخرطْتَ في الضالّين[2] .

اجمع بفَرْقك بين علمك وأمره ، بين عملك ورضاه ، بين طلبك وكرمه ، وأنت حينئذٍ من الصَّالحين .

---

(١) شُفْ : اجْلُ (فعل أمر من جلا يجلو) أي انظر وتبصَّرْ وتمعَّنْ ، وهذه الكلمة من فصيح العامية ، يقال : شاف يشوف شَوْفاً .

(٢) الجمع : رؤية الحقّ وحده ، والفرْق : رؤية الخَلْق مع الحقّ . ولكنّ المبتدعة الذين قالوا بوحدة الوجود زعموا أن الفَرْق هو حالة إحساسهم بالحياة والأشياء من حولهم ، وأنّ الجمع هو الاتّحاد بالخالق سبحانه وتعالى عمّا يقولون من الكفر المبين ، وقد أطلق عليهم الإمام الحَبْر المبجّل أحمد الرفاعي لقب « الضالّين » وحذّر من تخبّطهم : « ولا تجمعْ بين حدَثك (أي كونك مخلوقاً مُحْدَثاً) وقِدَم ربّك » .

لا تنم على حِلْس[١] حالك ، غير مترفع إلى حالٍ فوقه ، فإنَّ مَنْ تساوى يوماه فهو مغبون .

ما أطيبَ السَّيْرَ في الله إلى الله ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

كن في موعظتك حكيماً : ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[٢] واعمل بعلمك إذا كفاك للعمل ، ولا تقفْ في العلم عندَ غاية ، فإنَّ غايته فوق عمرك ، اطلبوا العلم من المَهْد إلى اللحد ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣] .

ارفعْ نظرك إلى المعالي بدِينك ، إلى المعالي بنبِيِّك ، إلى المعالي بربِّك ، لا تَضَعْ عزيزَ نظرك على تراب الضَّعَةِ فتربُضَ على كل قتَب ، تلك سِمَةُ البَطّالين[٤] وتدرَّعْ بدرك

(١) الحلْس : ما يبسط في البيت من حصيره ونحوه تحت كريم المتاع . ويقال : هو حِلْسُ بيته : لا يبرحه .
(٢) النساء : ١٠٥ .
(٣) سورة البقرة : ٦٧ .
(٤) الضّعة : الدناءة . ربض بالمكان : أقام . القَتَبُ : الرحل الصغير على =

علم الصحابة ، وانتسقْ بنسق حال الآل الكرام ، عليهم جميعاً الرضوان والسلام .

وهنالك لا يطغيك حال ، ولا يُزيغك شان ، وصُفَّ نفسك ـ وإنْ بَعُدَ المدى عليك ـ بصفِّهم يدخلْك فيهم تحقُّقُكَ بأحوالهم ، ويحققك بهم تخلّقُكَ بأخلاقهم : (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)[1] وعلى هذا ، فَمَنْ لم يغِشّنا فهو منّا[2] قَرُبَ المدى أو بَعُدَ ، هذا في الأمرين ، وعلى الحالتين :

مشكاة النبوّة[3]

شارقةُ فجر النور المحمّدي طالعة لا تغيبُ أبداً ، إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها ، وهو خير الوارثين ،

= قَنْر سَنام البعير . سمة : علامة . البَطّال : المعطَّل عن العمل .

(١) مسلم : الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : «مَن غشّنا فليس منا» والترمذي (البيوع) ١٣١٥ وأبو داود (الإجارة) ٣٤٥٢ وابن ماجه (التجارات) ٢٢٢٤ .

(٢) بحسب (مفهوم المخالفة) .

(٣) المشكاة : كوة في الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح .

فمن كلَّفَ نفسَه خدمةَ ذلك الجناب ، بإحياء سنتّه وإعلاء أمره ، فقد فاز وله أجر مائة شهيد ، يؤيد ما أقول قوله عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي فَلَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ »[1] .

قيل لرسول الله ﷺ : يا رسول الله! أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ : « مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ » قالوا : ثُمَّ مَنْ؟ قال : « مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ »[2] .

أفهمتَ أيها الأخ الصالح ، وأدركتَ أن نبيّك سِرَّ

---

(١) البيهقي من رواية الحسن بن قتيبة (الترغيب والترهيب ، الترغيب في اتباع الكتاب والسنّة ٦٢) ومجمع الزوائد ١/ ١٧٢ وميزان الاعتدال ١/ ٥١٩ ومشكاة المصابيح للتبريزي ١٧٦ والكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/ ٧٣٩ والسلسلة الضعيفة ٣٢٦ (موسوعة أطراف الحديث٨/ ٢٠٢ .

(٢) البخاري : الجهاد ، باب : أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، رقم ٢٦٣٤ (وانظر ٦١٢٩) ومسلم : الإمارة ، باب فضل الجهاد والرباط ، رقم ١٨٨٨ .

سِرَارة الأزل[١] ، ونور باصرةِ[٢] الأبد ﷺ ، فرّق الناس ، فقسمهم إلى ثلاثة أقسام : رجل نافع يجاهد في الله بنفسه وبماله ، ورجل يتقي الله ويعتزل الناس لكي لا يضرهم ، ورجل إنْ لم يكن أحد الرجلين ، فهو ـ حمانا الله وإياك ـ مُضِرٌّ ، وهو هالك ، هذا ما تضمنه كلام صاحب جوامع الكلم ، وأفضل الثلاثة : المجاهد في سبيل الله بنفسه وماله .

تهادت عِيسٌ[٣] هِمَمَ الموفّقِين إلى طلب الحقّ بالجهاد في سبيله ، وإنّ ذلك لعلى طُرقٍ وأقسام : منه جهادٌ باللسان ، ومنه جهادٌ باليد ، ومنه جهاد بالمال ، ومنه جهادٌ بالعزم ، ومنه جهاد بالعزيمة ، وكلُّها تؤول إلى الله ، يشملها قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٤] وأشرفُهم الجامعون .

---

(١) سرارة الأرض : أفضل مواضعها . وسرارة الحسب : أوسطه .
(٢) باصرة : عين .
(٣) العيسُ : الإبل البيض التي يخالط بياضها شُقْرة ، والجمل أعيسُ والناقة عَيْساء . والفعل : تعيَّسَ .
(٤) العنكبوت : ٦٩ .

مراقبة الله

وإنَّ نظر السُّلْطة ليحكم على الطابَعِ[١] من طرُقٍ شتّى : حقّ ، وباطل ، وَوَهْم ، وغير ذلك ، فلا تكنْ بعملك أسيرَ قَيْدِ نظرِ السلطة ، متى حضر عملْتَ ، ومتى غاب بطَلْتَ ، تلك شائبةُ الرياء ، شائبة الأمل ، شائبة الخوف ، اطْرَحْها عنك بعزمك ، واخلعْها متجرّداً إلى ربّك .

ما أدنى همةَ منْ قيّدَهُ النَّظرُ بعمله[٢] وأفلتَه

---

(١) الطابع (بفتح الباء وبكسرها) : الخُلق الغالب ، والطبيعة .

(٢) المراد : أنّ المرء إذا شاب دعوته الناس إلى الحقّ حبّ السُّمْعة ، أو التماس الهيمنة عليهم ، فإنّ ذلك مزلق ومزلّة ، لأنّه سينشط عندئذ أمامهم إن حضروا ، وينكمش حين لا يكونون ، وتارة يخطر له إصلاحهم ، وهو حقّ ، وتارة يراوده حب (طقطقة القباقيب) من حوله ـ كما كان يقول العارف الرّباني أحمد الرفاعي ، ومرّة ثالثة أخرى ينتابه أو قد ينتابه وهم بعلوّ شأنه ، ويقدر لنفسه أكثر من قدرها . . . لذلك يدعوه الإمام الجليل إلى تنكّب هذه السّبيل والتجرّد من هوى النّفس ، وحبّ التسلّط ، وابتغاء السُّمْعة . . (تنكّب السبيل : عدل عنها) .

عَيْبَتُهُ[١] عن العمل! أيُّ شِنْشِنة[٢] في الهمّة الرفيعة؟ وأيُّ نغمة لها في آذان الحادثات؟ ومدارجُ ترقّي السر في عوالم الغيب والحضور ترفَّعُ بنسبة مايفاض لها من نور العقل ، والتوفيقُ بيد الله تعالى .

حارَ أهل الأبصار والبصائر بما وراء هذه السّتائر ، والحَيْرَةُ عَجْزٌ حاكمٌ على كل ذي عقل بالإيمان المحْض والوقوفِ على جادّة السلامة : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٣] .

القرآن الكريم

وهذا كتابه تعالى الحُجّةُ القائمة ، والمعجزة الدائمة ، وفيه جميعُ الحِكَمِ ، خَفِيِّها وجَليِّها ، كُليِّها وجزئيِّها ، عرفها العارف فرأى من آيات ربّه الكبرى ، ولهذا السر

(١) العيبة : العيب .
(٢) شِنْشِنة (بكسر الشّينَيْن) : العادة الغالبة . وفي المثل : (شِنْشِنةٌ أعرفُها من أخزم) يضرب في قُرْب الشَّبَهِ في الخلُق .
(٣) الأنعام : ٩١ .

الأعظم قال النبيّ ﷺ : « إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »[1] .

آياتٌ بيّنات ، وكلماتٌ جامعات ، وأسرارٌ إلهيّات ، وعلوم ربّانيات ، طُوِيَتْ في منشور هذا الكتاب القويم ، والكلام القديم : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2] هنالك جنودُ الله الجوالة ، بُحورُ الله السيّالة ، سحائبُ الله الهطّالة ، سيوف الله الفعالة .

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3]

---

(١) البخاري : فضائل القرآن باب : « خيرُكم من تعلّم القرآن وعلّمه » رقم ٤٧٤٠ .وهو عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه . ورواه برقم ٤٧٣٩ باللفظ الذي عنون به الباب ، أيضاً عن سيّدنا عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

(٢) الزمر : ١٢ .

(٣) سورة البقرة ١ ـ ٥

خذْ أنموذج القُدْرة ، وحالَ العلم ، وشأن الحكم ، وسلطانَ الأمر ، من هذا الكتاب الكريم ، الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] يثقل على من قيَّده طبْعُه ، وغلبه هواه ، وقَهرتْه نفسه فأوهمتْه أنّه فوق جنسه . إيّاك ونَزْغَ الشَّيطان[2] فإنه يسوّل لك ، ويُوْهمك أنّك فوق غيرك . اتقِ الله بالآدميين ، قال ربك سبحانه لأشرفهِم وأعظمِهم[3] ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ

---

(١) ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ . « هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله ، هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلَق عن كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه » . (هو مأدبة الله في الأرض ، وكلام الحقّ إلى الخَلْق ، وعقيدة الإسلام ، وشريعة الرحمن ، ودستور الأمّة ، . . » وعمدة الملّة ، وينْبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، ونور البصائر والأبصار » [الكتابة الفنيّة في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ، للمحقّق (مؤسسة الرسالة) ٧٤ .

(٢) نَزْغُ الشيطان : وساوسه ، وما يحمل الإنسان على المعاصي .

(٣) وهو سيّدنا محمّد ﷺ ، قال إبراهيم في الجوهرة :

وأفضلُ الخَلْق على الإطلاقِ ... نبيُّنا فَمِلْ عن الشِّقاقِ .

مِّثۡلُكُمۡ ﴾[1] وضرب له خِدْرَ الفوقية بِسُلْطان : ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾[2] .

والوحيُ خُتِم ، وبعده انقطع ، والمِثْلية في كلنّا قائمةٌ باقية معنا ، لا تُخْتَم ولا تنقطع ما دام الآدميون .

هاهو ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[3] خذ حصة الأدب ، وسهم العبرة من تركيبك ، ركّبك مِنْ أجزاء نوعك الكثيرة المقطّعة المركّبة ، فأقامك كما أنت[4] فصُنْ أجزاءك من خُبْثُ اختيارك .

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) خِدْر (بكسر أوله وتسكين ثانيه) : بيت ، ستر . (وبفتحهما) : غيم ، تخدُّر أي فقد الإحساس وذهاب الوعي لطروء حالة نفسية أو لتعاطي دواء مخدّر . وقد يكون التخدّر موضعياً . والمراد هنا المعنى الأول ، فالله تعالى هو الذي رفع ذِكْر مصطفاه ﷺ ، وأعلى قَدْره ، وأعطاه الكوثر ، والشفاعة في المَحشر ، وأرسله رحمةً للعالمين ، (وضرب له خِدْر الفوقيّة) كناية عن نِسْبة .

(٣) الانفطار : ٨ .

(٤) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ [سورة التين : ٤] .

لا تعط أذنك طريق السَّير إلى سماع الكذب والزُّور وفُحْشِ الكلام .

ولا تبعثْ عينك إلى النظر بما لا يحلّ ، ولا تجعلْها تستحسن الفانيات ، فتسوقَ طبعك إلى حسد هذا ، واستعظام هذا ، واستكثار هذا .

ولا تُسيِّر رجلَك فيما لا يُرْضِي ربَّك ، ولا تُنْطق لسانك إلاَّ بخير ؛ ولا تَمُدَّ يدك إلاَّ إلى خالقك فيما يؤول إلى مراضيه .

وصُنْ بطنك وظهرك وما سَترْتَ عن كلّ ما يوقعك في وهْدة السؤال والخِزْي .

واشكر الله على السرّاء والضرّاء ، واذكرْه في الشّدّة والرخاء ، وكن معه في الصّحّة والمرض ، في بابه في السّقم والعافية ، ولا يدفعنّك المرض والسقم عن الربوض ببابه سبحانه ، فإنّ النبي ﷺ يقول :

« مَثَلُ الْمؤمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا

الرِّيحُ كَفَأَتْهَا ، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ ، وَالْفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا الله إِذَا شَاءَ »[١] .

فابهَجْ بالوصف الدَّالّ على إيمانك ، وافرحْ بربِّك وبما يجيء منه ، إيماناً به ، وركوناً إليه[٢] وارض عنه في كلّ أحوالك ، فإن العاقل غالبٌ رضاه على سخطه في كل

---

(١) البخاري : المرضى ، باب ماجاء في كفّارة المرض ، رقم (٥٣٢٠) ومسلم : صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن كالزرع ، رقم (٢٨٠٩) . الخامة من الزرع : الغضّة الرطبة الليّنة . كفأتْها : أمالتْها . تكفّأ : أصلها تتكفّأ ، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، أي تقلب بالمصيبة ، والمراد أنّ المؤمن إذا أصابه بلاء رضي بقدر الله تعالى ، فإذا زال عنه قام واعتدل بشكر الله تعالى ، فانقلب البلاء خيراً ورحمة . الأرْزة : قال ابن الأثير : (بفتح الراء : شجرة الأرْزَن ، وهو خشب معروف . وبسكونها : شجرة الصنوبر ، والصنوبر : ثمرُها) [جامع الأصول ١/ ٢٧٢] وقال العلايلي في معجمه : (الأرز . . وليس هو الشَّربين ولا الصَّنوبر ، كما وقع في الأصول القديمة ، وعند مَنْ جاراها) [هامش صحيح مسلم (دار إحياء التراث العربي) ٤/ ٢١٦٣ وقوله في هذه المسألة مردود . والأرْز الخشبي باسق صلب دائم الخضرة ، ومنه أرز لبنان ، وهو بفتح الهمزة وبضمّها ، والأرُزّ (بضمّها) والرُّزُّ ، وفيه ثماني لغات : حبّ أبيض صغير معروف ، وهو من الأغذية الرئيسيّة في كثير من أنحاء العالم ، وليس مُراداً في الحديث الشريف .

(٢) ركوناً : مَيْلاً وإقبالاً .

أموره ، والأحمق غالبٌ سخطُه على رضاه في كل أموره ، وكذلك فالرفيق المتعتّب[1] المتسخّط لا يُرَافَق ، والرفيقُ الراضي الحمولُ[2] لا يفارَق .

من أدب المعاشرة

والنفسُ يطيب لها حال يأخذُ بها إلى الهَدْأَةِ وجَمْع الحال وحضورِ الهمّة كيف كانتْ ، ويصعُب عليها كلُّ حال يجرُّها إلى الاستفزاز بطارق التسخُّط ، ويوردها حوضَ شتاتِ جَمْعِها ، ويغلبَ حضورَها .

وانتصِبْ لمعاشرة الآدميين على قدمي الصَّبر والتحمُّل ، فالبدنُ له رأس واحد ، فلا تجمعْ رأيك على أن تجعل كلَّ عضو في البدن رأساً ، وقُلْ لِمَنْ لم يتحقَّقْ بنسبة خَلْقه في حكم الرأسيّة : كنْ ذَنَباً ولا تكنْ رأساً ، فإنَّ الضَّرْبة أولَّ ما تقعُ في الرأس ، وارفعْ هِمّة مَنْ تَنَزَّلَ

---

(١) المتعتّب : الكثير المعاتبة والتعييب . يقال : فلان لا يُعتَّب بشيء : لا يُعاب .

(٢) الحَمُول : الصبور ، الحليم .

بخموله عن حقّ خَلْقه ، كأن خُلِق يداً فوقف رِجْلاً ، أو خُلِقَ رِجْلاً فاندلس[١] وَرِكاً[٢] ولا تر لك الخيرية على غيرك بعلمك ، بعملك ، فإن ذلك من التجرُّؤ على المُوْجِدِ جلَّتْ عظمته ، قال رسول الله ﷺ : « لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولاَ أَنَا إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَني الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، ولاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ ، إمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّه أَنْ يَزْدَادَ خَيْراً ، وَإمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبْ »[٣]

والعُتْبَى التي أشار إليها رسول الله ﷺ هي : أن يطلب

---

(١) اندلس : خفي . وتدلَّس : تكتَّم . والدَّلْس : الخديعة .

(٢) الورك : (بسكون الراء وبكسرها ، مع فتح الواو أو كسرها : أربع لغات) : مافوق الفخذ من الإنسان ، من خَلْفِه . يريد الإمام المبجَّل رضي الله عنه أن يعرف كلّ امرىء حدّه ، ويقف عنده .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الإمام البخاري : المرضى باب : نَهْي تمنّي المريض الموت ، رقم ٥٣٤٩ .

يتغمّدني : يغمرني ، يسترني ، يشمل . سدّدوا : ابتغوا السَّداد من الأمر ، وهو الصواب (الإصابة) .

وقاربوا : اقتربوا من الكمال ، فلا غلوّ ولا تقصير . يستعتب : يسترضي الله تعالى بالتوبة .

العبد رضاء ربه بالتوبة ، والرجوعَ إليه ، وهو أكرم الأكرمين .

ولتكنْ أيها الأخ الصالح كثيرَ الأدب مع خَلْق الله تعالى ، كثيرَ الرحمة والشَّفقة على والديْكَ ، أمِّك وأبيك ، وَصُولاً لرحمك ، متودِّداً لجيرانك ، ذا حنوٍّ عليهم ، رؤوفاً[1] بالمؤمنين ، متحققاً بشأنهم بأخلاق نبيِّك ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] وكذلك : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[3] .

وإذا أدخل عهدُ الله في آلك مَنْ ليس منهم ، فارحمْه كرحمتك لآلِك ، عملاً بحال معلِّمك الذي زرع الخير في

---

(١) يمكن كتابة هذه الكلمة بطريقتين : كما كتبت هنا ، بواو مهموزة ثم واو مدّ ، وبواو مهموزة فقط (رؤفاً) .

(٢) التوبة ١٢٨ .

(٣) الأحزاب : ٦ وقد أحسن رضي الله عنه اقتباس كلام الله جلّ جلاله ، اقتبس من سورة التوبة خبراً ، ومن سورة الأحزاب مبتدأ ، على الحكاية .

قلوب المسلمين ﷺ . قال أسامة بن زيد رضي الله عنهما : « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَأْخُذُنِي فَيُقْعِدُنِي عَلَى فَخِذِهِ ، وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الآخَرِ ، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا ، ثُمَّ يَقُولُ : اَللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُما »[1] .

ولتكنْ باراً بجارك ، فقد قال المصطفى عليه وعلى آله أكملُ صلوات الله وأجلُّ تسليماته : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ »[2] .

وَلْتَعْرِفْ لوليِّ الله حقَّه بالكفِّ عنه ، فيما زاد عن حقِّ الله ورسوله[3] قال رسول الله ﷺ :

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والنسائي والروياني وابن حبان والضياء المقدسي (كنز العمال ١٣/ ٣٦٨٠١) وانظر موسوعة أطراف الحديث ٦/ ١٩٦ .

(٢) البخاري : الأدب ، باب الوَصاءَة بالجار ، رقم ٥٦٦٨ عن عائشة رضي الله عنها ، ورقم ٥٦٦٩ عن ابن عمر رضي الله عنهما . ومسلم في البِرّ والصِّلَة والآداب ، باب الوصية بالجار والإحسان إليه ، ٢٦٢٤ و٢٦٢٥ . ظننت أنه سيورثه : توقعت أن يأتيني بأمر من الله تعالى يجعل الجار وارثاً ممن جاره كأحد أقربائه .

(٣) اعرف لله تعالى حقَّه ، ولرسوله ﷺ ، ثم اعرف أيضاً لوليّ الله حقَّه (إضافة إلى حقّ الله ورسوله) .

« إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِل حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ »[١] .

فخذ من هذا الحديث القدسيّ العلمَ بالوليّ ، واعرفْ حقه ، ولاتَحُطَّ من قَدْره ، ولا تَغْلُ به[٢] وابتغ الخيرَ بسببه ، واتّبِعْه ، وأنِبْ إلى الله كما أناب .

---

(١) البخاري : الرقاق ، باب التواضع ، رقم ٦١٣٧ . آذنته بالحرب : أعلمته بالهلاك والنكال (ليعلمْ أنه عدوّ لله ، وأنّ الله تعالى محاربه ومُبيره) . وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه . وانظر الإتحافات السَّنيّة في الأحاديث القُدسيّة ١٣٧ و١٤٠ .

(٢) ينهى الإمام الرفاعي عن الغلوّ في الأولياء ، فلا ينبغي إطراؤهم بما فيه المبالغة والسَّرَف ، وإذا سأل المسلم فليسألِ الله تعالى ، وإذا استعان فليستعنْ بالله ، وإذا حلف فبالله ، وليس ينفع ولا يضرّ إلاّ الله عزّ وجلّ . .

وأكثِرْ مِنْ قراءة القرآن وَقْتَ انشقاق الفجر ، فإنّ في ذلك الوقت معنىً من معاني حال النبيّ ﷺ ، ورضيَ الله عن ابن رواحةَ الصحابيّ الجليل ، فإنّه قال يمدحُ سيّدَ الممدوحين نبيَّنا الأمينَ صلّى عليه ربُّ العالمين :

وَفِينـا رَسُـــولُ اللهِ يَتْـلُـو كِتَـابَـهُ
إذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْـرِ سَاطِـعُ
أرَانَـا الهُـدَى بَعْـدَ الْعَمَـى فَقُلُوبُنَا
بِـهِ مُوقِنَـاتٌ أَنَّ مَـا قَـالَ : وَاقِـعُ
يَبِيـتُ يُجَـافِـي جَنْبَـهُ عَنْ فِـرَاشِـهِ
إذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ(١)

(١) (البخاري : التّهجد ، باب فضل مَنْ تعارّ من الليل فصلّى ، رقم : ١١٠٤) . تعارّ : انتبه . معروف : زمن طلوع الفجر الصادق . العمى : استعارة للضلالة والكفر . يجافي : يباعد . وانظره في البخاري أيضاً كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين ، رقم : ٥٧٩٩) .

واركع ركعتي الفجر ، فقد قالتْ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضي الله عنها : (لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوافِلِ أَشَدَّ تَعَاهُداً مِنْهُ عَلَى رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ)[1] .

واحرِص على فرائض الله ، وأدِّ حق نبيك الكريم بالمحافظة على سننه ، وَعَظِّمْ ما عَظَّمَ الله تعالى ، وكن شديداً في الله ، قال الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[2] .

وانفُضْ يديك من كل عارض دون الحقّ ، ولا تَمِلْ إلى كل مُعْوَجٍّ ، واسلك الطريق المستقيم .

وكُلُّ طريق رأيتَ فيه العوصاء[3] التي تنكرها فدعه ، وانهج الطريق الذي تعرفه ، وحكِّم في كلّ قول وعمل شريعة نبيِّك السيّد العظيم القَدْر ﷺ .

---

(١) البخاري ، التَّطوّع ، باب تعاهد ركعتي الفجر ، رقم : ١١١٦ ومسلم : صلاة المسافرين ، باب استحباب ركعتي سنة الفجر ، رقم : ٧٢٤ . تعاهداً : تفقّداً ومحافظة .

(٢) الفتح : ٢٩ .

(٣) العوصاء : عاص الأمر وعَوِص : التوى فخفي وصعب .

وإذا قلت فلا تقلْ إلا خيْراً ، وإذا فعلْتَ فلا تفعلْ إلاّ حقّاً ، وإذا صحبتَ فلا تصحبْ إلا خَيِّراً ، وإذا قمتَ وقعدتَ فلا تكنْ إلاَّ نزيهاً نظيفاً .

ولا تعبد الله على حَرْف[(١)] اعبدْ ربَّك ولا تشركْ به شيئاً ، واجعلْ مَحَجّتك[(٢)] قول نبيِّك الذي هو أولى لك من نفسك[(٣)] وإذا ابتليت فامدُدْ يدَ الرجاء إلى بارئك ،

---

(١) قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾ [الحج : ١١] قال السيوطي : « على حرف : أي شك في عبادته ، شُبّه بالحالّ على حرف جبل في عدم ثباته » [تفسير الجلالين] . وقيل : « على طَرف ، ومنه حرْف الجبل أي طرفه ، أي دخل في الدين على طَرف ، فإن وجد ما يحبّه استقرّ ، وإلا انشمر » [ابن كثير] فكان ضعيفُ اليقين رقيقُ الدِّين إذا أسلم ورزق غلاماً ، ونُتِجَتْ خيلُه ، وكانَ عامُ غيث وخِصْب استمرّ على دينه ، وإنْ لم يكن ذلك ارتدّ . « وقال ابن عطيّة : حرف : على انحراف منه عن العقيدة البيضاء ، أو على شفا منها معدّ للزّهوق » [البحر المحيط] . وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية بمصر (الهيئة المصرية العامة للكتاب) : « حَرْف الشيء : طرَفه وحدّه » .

(٢) محجّة : طريق .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ [الأحزاب : ٦] .

واصبرْ لحكم ربك ، ولاتيأس من رَوْحه فـ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1] وانتظِرْ فرجَ الله ، فقد قال رسول الله ﷺ : « انْتِظَارُ أُمَّتِي فَرَجَ الله عِبَادَةٌ »[2] .

وقال عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام : « إنَّ لله فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ مائةَ أَلْفِ فَرَجٍ قَرِيب »[3] ، وتعرّض لنفحات ربّك في كل طَرْفة[4] .

---

(١) يوسف : ٨٧ . ☆ ☆ ☆

(٢) إتحاف السّادة المتقين ٩/٢٧ والدر المنثور ٦/٩٩ وكشف الخفا ١/٢٣٩ وكنز العمال ٦٥٠٨ و٦٥٠٩ .

(٣) الفرج بعد الشدّة لابن أبي الدنيا . وفي كنز العمّال (١٠٤١٥) : « إن لله تعالى في كل يوم ثلاثمئة وستين لحظة يلحَظ بها إلى أهل الأرض ، فَمَنْ أدركتْه تلك اللحظة صرف الله عنه شرّ الدنيا وشرّ الآخرة ، وأعطاه خير الدنيا وخير الآخرة » .

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن لربكم في أيام دهركم نفحاتٍ ، ألا فتعرّضوا لها » [الفرج بعد الشدّة لابن أبي الدنيا (كشف الخفا ١/٢٦٩ برقم : ٧٠٨)] .

وعظِّم الأشياء بِمُظْهِرها سبحانه[١] ماأعظم أسرارَ الله المطويّةَ في عوالم خَلْقه! أَلِفَ الأممُ تعظيمَ عظمائهم ، وأَلِفَ كلُّ أمة التشوُّف إلى حال عظماء الأمة الأخرى ، فإذا رأوهم ـ وإن كانوا فوق عظمائهم أولي قوة ، وأولي بأس شديد ـ حطَّتْ بهم أعينهم عن مراتبهم ، ورأوْهم دونَ ما هم ، فتراهم يستعظمون مالَهم ، ويحطّون على عاداتهم ، يتعجّبون من كثرتهم ، ويسخرون منهم للباسهم[٢] وما ذلك إلا لقصر النظر عن استجماع شؤون الناس ، واستكْناه حُكْمِ حالِهم ، وحِكْمةِ عاداتهم ، وشأن بلادهم وماهم عليه ، ولِتَمَكُّن حال عظماء تلك الأمة وشأنها من قلوب الأمة ، ولانطباع النفوس على تلك العادات والمشارب .

---

(١) إذا رأيتَ بديعَ صنع الله تعالى فعظّم الخالق سبحانه ، ولا يشغلنّك المخلوق عن الخالق .

(٢) يعود الضمير في « كثرتهم » إلى قومهم أنفسهم ، أمّا الضمير في « للباسهم » فيعود إلى عظماء الأمم الأخرى .

والأمر كذلك في العقائد والمذاهب[1] والعاقلُ الحكيم لايرى هذا ولا يقولُ به ، وإنما يستكْنِه[2] الحقَّ فيقف عنده ، يُحَسِّن ما حسَّنه الشرعُ لاستجماعه أشرف المحاسن ، ويُقَبِّح ما قبّحه الشَّرْع لنزاهته عن القبائح ، ويضعُ كلَّ شيء بميزان الحكْمة ، فإنْ رجح استرجحه ، وإنْ خفَّ استخفّه ، وهو في الأمرين على منصّة[3] الأدب ، لا يهتِكُ ستر الله المُنْسَدِلَ[4] على مخلوقاته ، ويقولُ الحقّ ، ولا يخاف في الله لومة لائم .

فكن أنت ذلك الرجل الحكيم الكريم ، وإذا مسَّك من شيطانك نَزَغ ، فقاد طبعك إلى التجاوز والتعالي ، أو إلى

---

(١) يكتفي المسلمون بالمعتقدات الإسلامية التي استوفى ديننا تِبْيانها ، وغير المسلمين يأخذونها ويعتقدونها إن شاؤوا ، ونحن في غَناء عن معتقدات العالمين .

(٢) يستكنه : يطلب معرفة الكُنْه ، وكُنْهُ الشيء حقيقته .

(٣) المِنصَّة : كرسي مرتفع أو سرير يعدّ للخطباء أو العرائس وانتصّ الشيء : ارتفع واستوى .

(٤) هتك الستر : جذبه فأزاله من موضعه ، أو شقّ منه جزءاً فبدا ما وراءه . وسدَل الستر : أرخاه وأرسله . وانسدل : أُرخِيَ وأُسْبِلَ .

البغي والعناد والمكابرة ، أو مدَّ لك في خاطرك بساط الحسد فظلمْت ، وأوقعتَ الأشياء في غير مواقعها ، فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم ، واذكرْ ربّك ، وبذكره اذكر الموتَ ، فهو بابُ المصير إليه ، والرجوعِ إلى حَضْرة أمره ، والسبيلِ إلى الوقوف بين يديه ، وتذكّرْ هنالك سؤالَه لَكَ عن كلِّ شيء ، ولا تنس مضمون سرِّ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[1] وطُفْ بقلبك في كل حضرة ، وخذ ماصفا ، ودع الكدر[2] وليكن عملك صالحاً لِيُرفَعَ إليه سبحانه : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾[3] .

واجمع الناسَ عليه[4] لا عليك ، خذهم إليه ، لا إليك ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

---

(١) النساء : ١ .

(٢) كدِر يكدَر (مثل شرِب يشرب) وكدُر يكدُر (بضم الدّال فيهما) : نقيض صفا . والكدِر (بكسر الدال) صفة مشبّهة منهما .

(٣) فاطر : ١٠ .

(٤) عليه : على الله عزّ وجلّ ، إليه فادْعُ الناس ، وبلّغ الأمانة المنوطة بك .

قفْ ـ هي دارُ عِبْرةٍ ـ أيها الولد اعتبر بها ، اعتَبرْ بها ، وسرْ بكلّ مافيها إلى الله ، وإيَّاك أن يشغلك بارزٌ منها عن ربّك .

ذمّ البطالة

وإياك والبَطالة[١] ما أقبح الصوفيَّ البطّال ، يدَّعي الزهد وعينُه في المال ، ويدُه ممدودةٌ للسؤال! .

ليس من الهمّة أنْ يَرى الرجلُ نفسَه آخذاً ، بل الهمّةُ أنْ يرى الرجلُ نفسَه مُعْطياً ، سُفُولُ اليد أصعبُ مِنْ قَطْعِها ، احترِف بما تصل إليه قُوَّتُك ، ويبلغُه إمكانك ، أدنى حِرفة من الأعمال والصنائع فيها ـ لو فقهْتَ ـ أشرفُ صفةٍ دَرَجَ عليها أهل الهمم ، وهي الترفُّع عن نَوال زيد وعمرو ، ركوناً إلى كرم الله سبحانه ، قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الله يُحِبُّ أنْ يَرى عَبْدَهُ تَعِباً في طَلَبِ الْحَلَالِ»[٢] .

---

(١) بطَّل العمل: قَطَعه. وبَطَل العامل بَطالة (مثلّثه الباء): تعطّل، فهو بطّال

(٢) مسند الفردوس للديلمي ، عن عليٍّ كرّم الله وجهه (كنز العمال =

انسِجوا وشْيَ[١] صنعاء ، وبَزَّ[٢] فارس ، وخَزَّ[٣] إشبيلية بين سَوارِي[٤] أَرْوِقَتِكم[٥] بهذه القَرْية[٦] واجمعُوا بين صنائع العرب والفرس والروم ، وتصدَّقوا من كسبكم على إخوانِكم حلالاً طيباً ، واسُوا وكلوا مما رزقكم الله ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ

٤/ ٩٢٠٠) وإتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٤١٥ وتذكرة الموضوعات لمحمد طاهر الهندي ١٣٣ وقال : ضعيف جداً ، والأسرار المرفوعة لعلي القاري ١٢٨ والدرر المنترة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ٢٧ وكشف الخفاء ١/ ٢٩١ ، وأورد أحاديث أخرى من هذا الباب ، وعقَّب عليها بقول السخاوي في المقاصد : « ومفرداتُها ضعاف ، ولكنْ بانضمامها تتقوّى ، أي فيصير الحديث حسناً » . وانظر الفوائد المجموعة للشوكاني ١٤٥ (موسوعة أطراف الحديث ٣/ ٢١٨) والمغني للعراقي ٢/ ٦١ ونَقَل عن الدارقطني طعناً في أحد رواته .

(١) وشي صنعاء : نوع من الثياب المَوْشيّة شُهِرتْ به مدينة صنعاء في اليمن .

(٢) البزّ : الثياب .

(٣) الخزّ من الثياب : ما يُنسَج من إبْرِيسم (حرير) ، أو من صوف وإبريسم معاً .

(٤) سواري : ج سارية وهي العمود (الأسطوانة) .

(٥) أروقة : ج رواق (بكسر الراء وبضمّها) : بيت كالفسطاط .

(٦) القرية يريد قرية أم عبيدة في بطائح العراق .

ٱلرِّزۡقِ ﴾(1) الطيباتُ لله إذا اكتُسبتْ من حلال ، وأهلِكتْ في حلال .

قال سيد أهل الهمم ﷺ : « إنَّ الله يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ »(2) .

أكرهُ ما تراه العين : رجلٌ عليه سِيما(3) الزاهدين ، وهمّته همَّةُ السَّائلين . مَنْ طأطأ للنوال ، ورضي

---

(1) الأعراف : ٣٢ .

(2) ضعيف . رواه ابن عمر رضي الله عنهما ، وابنه سالم (ت ١٠٦هـ) عنه ، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٩٨٣٤) وابن عديّ في الكامل في الضعفاء ١/٣٦٩ (كنز ٩٢٣٩) والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ، وقال : في سنده أبو الربيع ، وهو متروك ، والعجلوني في كشف الخفاء ١/٢٩١ (رقم : ٧٦٣) وقال : ورواه الطبراني والبيهقي والحكيم الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ : « إن الله يحبّ العبد المؤمن المحترف » ، وهو أيضاً في كنز العمال (٩١٩٩) وإحياء علوم الدين ٢/٦١ وقال زين الدين العراقي : أخرجه الطبراني وابن عدي وضعّفه [المغني ٢/٦١] . وإتحاف السادة المتقين ٤/١٤٢ والدر المنثور ١/٣٦٢ ومجمع الزوائد ٤/٦٢ ولسان الميزان ٤/٢٤٠ وميزان الاعتدال ٩٩٥ و٥٤١١ وتذكرة الهندي ١٣٣ وأسرار القاري ١٢٧ والدرر المنتثرة ٢٧ والعلل المتناهية لابن الجوزي ٢/٩٩ (موسوعة أطراف الحديث٣/٢١٧) .

(3) سيما : علامة (مثل السِّمة) .

بالسُّؤال ، فهو أخسُّ طبعاً من عَجَزة النساء .

لا أقول هذا لأُنَفِّرَ القلوب من السائلين ، أدُّوا ماعليكم من حقوق الرَّحْمة بخلق الله ، والتصدُّق على الفقراء لوجه الله ، هذا ما وجب عليكم ، ولا ينزَغنَّكم الشيطان فتشمئزَّ منهم نفوسكم : فتُهينوهم ، وتروهم بعين الاحتقار . هذا إذاً يكون من تسويل إبليس ودسائسه . ولكنْ أقول هذا لأرفع همم إخواني طلابِ الحقّ عن البَطالة ، قال ﷺ : « إنَّ الله يَكْرَهُ الْعَبْدَ الْبَطَّالَ »[1] .

رأيت خالي وسيدي الشيخ منصوراً ـ سح على قبره هَطَّالُ الرَّحْمة ـ وقد ردَّ هدايا بعضِ الفقراء ، فقلت له في ذلك؟

فقال : فيها شيء مجتمِع من السؤال ، ولو كان عن

---

(١) كشف الخفاء ١/٢٩١ (رقم : ٧٦٣) وقال العجلوني : قال الزركشي : لم أجده . . ومثله في اللآلىء (المصنوعة) . والأسرار المرفوعة ١٢٧ وتذكرة الموضوعات ١٣٤ والفوائد المجموعة للشوكاني ١٤٨٦ والدرر المنتثرة ٢٧ (موسوعة أطراف الحديث٣/ ٢٣٤) .

خالص طريق أبلج[1] لقبِلْتُه ، يريد أن ذلك الشيء لو لم يكن مشوهَ الوجه بالسؤال ، وكان من حلال طيّب ، كنتُ أقبله ، عملاً بالسنّة المحمدية ، فإنه عليه الصلاة والسلام ردَّ الصَّدَقة ، وقَبلَ الهدية .

هذا طريق القوم ، بلى إن القوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وصية الإمام ابن حنبل لابنه

قال الإمام أحمد بن حنبل[2] ـ رحمه الله وعطَّر قبره ـ لولده عبد الله بعد أن صحب العارف أبا حمزة البغدادي[3] الصوفيّ ، طيَّب الله مضجَعه :

---

(١) أبلج : واضح .

(٢) أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (١٤٦ ـ ٢٤١هـ) صاحب كتاب «المسند» ، والذي ذبَّ عن المسلمين بدْعةَ القول بخلْق القرآن ، وسُجن لثباته ثمانية وعشرين شهراً ، وعُذّب . رضي الله عنه .

(٣) أبو حمزة البغدادي البزّار ، كان عالماً بالقراءات فقيهاً . مات سنة ٢٨٧هـ .

« يا ولدي ، عليك بمجالسة هؤلاء القوم[1] فإنهم زادوا علينا بكثرة العمل ، والمراقبة ، والخشية ، والزهد ، وعلوّ الهمّة » .

رحمه الله ما أكثَره إنصافاً! قد وصف القوم بما هم أهلُه ، وهذه الصفات التي يحبها الله تعالى من عباده ، قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ تَعَالى كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخلاَقِ ، وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا »[2] .

الزهد

وقال ﷺ ـ وهو الصادق الأمين ـ : « اِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحبَّكَ الله ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ »[3] .

---

(١) يريد الصوفية .

(٢) قال الحافظ العراقي : أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متّصلاً ، ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كريز مُرْسلاً ، ورجالهما ثقات [المغني عن حمل الأسفار ٢/٣٥٨] . وأخرجه أيضاً الطبراني وأبو نعيم والحاكم عنه [كنز ٦/ ١٥٩٩١] .

(٣) المستدرك (الرقاق) ٤/ ٣١٣ وابن ماجه (الزهد) ٤١٠٢ بأسانيد =

وليس الزهد : أن تختط لك كَوّة[1] في الجبل ، وتلبس الخشن ، وتأكل الخشن ، وإنما الزهد : أن تنفض يديك من الدنيا ، فلا ترفعها إلى قلبك ولو ملكتَها بحذافيرها[2] وإنّ مِنْ علامة الزهد قولَ الحقّ ، لأنّ كلبَ الدنيا يخاف على جيفته فيسكتُ عن قول الحقّ ، ويوافق أهل الباطل ، والزاهدُ بها لا يخافُ على شيء منها ، فيقول الحقّ ، وينصر الله الحقّ بأهل الحقّ ، ومتى أغضتْ الأمةُ على الباطل وتركوه على حاله ، فقد نادَوْا على أنفسهم بالخِزْي والشتات ، قال رسول الله ﷺ : « إذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّكَ ظَالِمٌ ، فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ »[3] .

= وصفها النووي بأنّها حسنة . وطعن الذهبي بأحد رواته [التلخيص ٤/٣١٣] . وصححه الحاكم .

(١) الكَوّة : (بفتح الكاف ، وبضمّها) الخَرْق .

(٢) حذافير : ج حِذْفار وحُذْفور ، وهو الجانب ، والناحية . ملكتها بحذافيرها : بأسْرها ، بكلّ نواحيها وجوانبها ، وحَذْفره : ملأه .

(٣) صحيح . رواه أحمد في المسند (مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما) ٦٥٢١ ، والحاكم (كتاب الأحكام) ٤/٩٦ وهو في الترغيب والترهيب (الحدود ، الترغيب بالأمر بالمعروف . .) برقم =

وبرواية أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ فِيهَا لِلضَّعِيفِ حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ»(1)، وهل يؤخذ إلاّ إذا قال قومٌ الحقّ وانتصروا له؟ هذه سُنَّة الله في عباده.

حكيم ضاء قلبه بقابسة نورِ النبوة، يفعل ما لا يفعل العسكر الجرّار: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(2) وكلمة تفتق رَتْقاً(3) وتُحْيي حقاً، وترفع جدراناً، وتشيد بنياناً، والأمر كذلك.

☆ ☆ ☆

= ٣٤٢١ ومجمع الزوائد ٧/ ٢٧٠ وكشف الأستار ٣٣٠٢ والجامع الصغير ٦٢٧.

(١) ابن عساكر عن عبد الله بن أبي سفيان (كنز العمال ٥٦٠٦) وأخرج نحوه الطبراني وأبو سعيد النقّاش (في القضاة) وأبو نعيم عن معاوية وابن عمرو رضي الله عنهم، وأبو يعلى عن أبي سعيد رضي الله عنه، والنقاش أيضاً عن عائشة رضي الله عنها [انظر كنز العمال ٥٦٠٧ ـ ٥٦١١]. وغيرَ متعتع: بلا تردّد ولا عِيّ.

(٢) النور: ٤٠.

(٣) الرَّتْق: المنسدُّ الملتئم.

اجمعوا ـ أي إخواني ـ قلوبكم على محبة بعضكم ، على أولياء أموركم ، اصبروا على أمرائكم ، لا تخرجوا على سلطانكم .

قال رسول الله ﷺ : « من كره مِنْ أَمِيرِهِ شَيئاً فَلْيَصْبِرْ ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْراً مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً »[1] .

وبرواية عبادةَ بنِ الصَّامت رضي الله عنه قال : « دعانا النبي ﷺ فبايعناه ، فقال فيما أخَذَ علينا : أن بايعنا على السَّمعِ والطاعة ، في مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا ، وعُسْرنا ويُسْرنا ، وأَثَرَةٍ علينا ، وأن لاننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بوَاحاً ، عندكم من الله فيه برهان »[2] .

---

(١) البخاري : الفتن ، باب قول النبي ﷺ : « ستَرون بعدي أموراً تُنكرونها » رقم ٦٦٤٥ ومسلم : الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ، رقم ١٨٤٩ . شبراً : مقدار شبر .

(٢) البخاري (في الكتاب والباب المذكورين) رقم ٦٦٤٧ . ومسلم كذلك ١٧٠٩ . منشطنا : حالة نشاطنا . مكرهنا : في الأشياء التي نكرهها وتشق علينا . على أثرة علينا : نؤثر مصلحة الأمراء على التمتّع =

هـذه أوامـرُ نبيّكـم الصـادقِ الأميـن ، حبيـبِ ربِّ العالمين ، فيها لكمْ هدىً وبركة ، وأمنٌ وأمان ، تمسَّكُوا بها وَلنْ تضلّوا أبداً .

المعاملة المُثلى للأهل والموالي

عاملوا أهْلكم ونساءكم وأولادكم ومواليكم بالرِّفْق واللِّين ، ولا تُغلِظوا عليهم إلاّ فيما يؤول إلى دينِ الله ، احفظوا لهم نظامَ مروءتهم ،فإنّ المروءة من الإيمان ، سِيرُوا بأهلكم في حُكْم معيشتكم السيرةَ الوُسْطى ، لاضيقٌ مُضجِرٌ ، ولا وُسْعٌ مُبْطِر ، قِفوا بين الحالين ، نحن من الأمّة الوسط ، اجمعُوا أمركم في معاشكم عن أن تبسطوا الأيـاديَ فتتكفّـف[1] بـالضِّيـق ، اجعلـوا علـى مقيـاسكـم وطاءكم[2] وغطاءكم ، **« اخشوشنوا فإنَّ النعم لا تدوم »**[3]

= بكل حقوقنا . بواحاً : ظاهراً .

(١) تتكفّف بالضيق : تسأل بسبب ماهي فيه من ضيق .

(٢) الوِطاء : المهاد الوطيء ، الفِراش .

(٣) كشف الخفاء ١/٦٩ (رقم ١٥٧) وانظر الحديث ١٠١٨ . وانظر أيضاً موسوعة أطراف الحديث (ط١) ١/١٨٣ .

خذوا عن الشَّرَه[1] وحبّ الثوب والمائدة جانباً ، استغنُوا عن الكُلِّ بالجزء ، علّموا أولادكم وعيالكم الأدبَ الدّيني ، أطيعوا فيهم لوازمَ المروءة ، قيِّدوا ألسنتهم إلاَّ عن كلام شريف ، قيِّدُوا ذَهابهم وإيَابهم إلاَّ إلى محضر شريف[2] .

من أدب الصُّحْبة

يروى عن عليٍّ الكرَّار أمير المؤمنين عليه السلام شعرٌ منه :

يُقَاسُ الْمرْءُ بِالْمَرْءِ   إذَا مـا هُـوَ مَـاشَـاهُ
وَلِلشَّـيءِ عَلَى الشَّـيْءِ   مَقَـايِيسٌ وَأَشْبَـاهُ

والمرءُ بقرينه يُعرفُ شأن تمكينه ، فقارنوا[3] المهذَّبين

---

(١) الشَّره :البطر .
(٢) محضر : اسم مكان أو مصدر ميمي ، أي مجلس ، ملتقى ، اجتماع ، زيارة ، لقاء . .
(٣) قارنوا : صاحبوا .

أهلَ القلوب الطاهرة ، والأخلاق الشريفة ، لا تنظروا لفقرهم وذلِّهم ومسكنتهم بنظر الاحتقار ، فكم لِلَّهِ من سيف مُغْمَدٍ في قِراب رثٍّ خَلَقٍ[1] .

إنِّي أُسَرُّ بأربعة أشياء إذا نزلت بأصحابي ، وأفرحُ لهم بها ، وأسأل الله تعالى لهم الصبر عليها : الجوعُ ، والعُرْيُ ، والذِّلَّةُ ، والمَسْكنة ، وهذه شِعار الفقراء ، ولكنْ كيف هي لو عرفتم؟ جوعٌ في شِبَع ، وعُرْيٌ في اكتساء ، وذِلّةٌ في عِزّة ، ومسكنة في مُكْنَة .

جائع ، وضيفانه شباع ، عارٍ ، قُصَّاده كساة ، ذليل ، وأتباعه أعزاء ، مسكين ، ومواليه مَكِينُون .[2]

كذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاروق الجليل ، وأمثاله ، رضي الله عنهم .

---

(١) مُغْمَد : مُدْخل في غِمْدِهِ ، وهو غلافه (بيته) ، وهو القراب أيضاً .
رثّ : مهترىء . خلق : بالٍ .
(٢) مكينون : أقوياء .

عليٌّ المرتضى[1] ـ عليه السلام ـ جاعَ بعدَ أنْ كنَس بيتَ المال في الله ، مسكينُ الله في محرابه ، وهو أسد الله يوم الحِراب ، ذليلٌ لأمر الله ، وهو الليثُ الغالب .

شرف الأكاسرة في إخلاص الزاهدين ، مُكْنةُ القياصرة في مَسْكنة الخاشعين ، وإذا كانتْ ذلّةُ[2] قلبٍ للربّ المُعِزّ ، وتجرّدُ وجودٍ للموجِد الحقّ ، وإجاعة كبِدٍ للمشبع الكريم ، ومسكنةُ حالٍ للقدير النصير ، الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فما هي إلا طراز[3] حالٍ فيه أنموذج عن شأن النبيّن والمُرْسَلين عليهم صلواتُ ربّ العالمين ، والصبرُ عليها منحةٌ من منح الله تعالى أسماؤه ، وجلَّ ثناؤه .

قال بعضهم : عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى[4]

---

(١) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) ذلّة : فاعل بفعل « كانتْ » وهي هنا تامّة (بمعنى وُجِدَت) .

(٣) طراز : نمط ، شكل .

(٤) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم (٦١ ـ ١٠١هـ) تولّى الخلافة سنتين ونيّفاً ، فسار فيها على نهج الرّاشدين رضي الله عنهم ، وفيه قول=

أزهدُ من أويس القَرني عليه رضوان الله ورحمته[1] لأن عمر جاءته فهرب منها وتركها ، وأويس لم تأته ، ولكنه زهد فما طلبها .

اللهم نسألك علماً بك ، وإيماناً جاء من عندك ، وتوكُّلاً عليك ، وانتصاراً لك .

أي سادة! الطرق إلى الله تعالى عدَّ أنفاس الخلائق ،وإني لم أر أقربَ وأوضح ، وأيسرَ وأصلح ، وأرجى من طريقَي الذُّل والانكسار ، والخضوعِ والافتقار .

إذا أراد [اللهُ] العبدَ لأمرٍ هيّأه له ، وهيّأه للأمر الذي أراده له ، وما وصل المقرَّبون إلى محلِّ الكَشْف والمُشاهدة إلاَّ بترك الاختيار ، وكثرةِ التواضع والانكسار ،

= الشاعر :

أتتـهُ الخِلافَـةُ مُنقَادَةً إليـه تُجَـرِّرُ أذيـالهـا
فلـم تكُ تصلـح إلاَّ لـه ولم يكُ يصْلُحُ إلاَّ لهـا

(١) أويس بن عامر ، تابعي ناسك ، صالح ، كان يسكن القفار والرمال ، مات سنة ٣٧هـ .

وطاعة الملك الجبار : ولقمةُ الحرام تحجب الدَّعوة أن تُستجاب[1] .

والفتوّة كل الفتوة ، الصَّفْحُ عن عثرات الإخوان ، وأن لايرى الرجلُ له فضلاً على غيره .

والتصوّفُ : تهذيب أخلاق ، وشرفُ طباع ، وعلوُّ هِمّة ، فمن حسنتْ أخلاقه ، وشرفتْ طباعه ، وعلَتْ همّته ، فهو الصوفيّ ، وإلاَّ فلا .

والإخوان أغصانٌ تضمهم شجرة ، وهي المُرشِد ، ومَنْ شذَّ عنهم فقد انقطع !

---

(1) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : تُليتْ هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة : ١٦٨] فقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ادْعُ الله أن يجعلني مستجاب الدَّعوة . فقال له النَّبي ﷺ : « يا سعد أطبْ مطعَمَكَ تكن مستجاب الدَّعوة ، والذي نفسي بيده إن العبد ليقذف اللُّقمة الحرام في جوفه ما يتقبَّل منه عملُ أربعين يوماً ، وأيُّما عبد نبَتَ لحمهُ من سُحْتٍ فالنار أولى به » رواه الطبراني في الصغير [الترغيب والترهيب : (دار ابن كثير) ٢/٥٣٥ (الترغيب في طلب الحلال) ورقم الحديث : ٢٥٦٨] وهو في مجمع الزوائد ١٠/٢٩١ .
والسُّحْتُ : الحرام .

إذا اجتمعتم على الطعام تناصفوا ، وتَواسوا فيما بينكم ، ولايقصدْ أحدُكم أن يغْلِبَ الآخر ، فإنّ الغالب في ذلك مغلوب! وإن المؤثر ممدوح مُثابٌ محبوب ، وإنّ الأكلَ دليلٌ على شرف الهمّة وعكسه ، وأخو الشَّرهِ لايكون شريفَ الهمّة ، وإنما يكون حريصاً نَهِماً ، فعليه أن لايُظهر عيبه في كلّ ما يظهر منه للناس ، وأن يُطهِّرَ ساحة قلبه من كل عيب له لايطّلع عليه إلاّ الله ، ومَنْ لم يكنْ له داعيةٌ من نفسه لم تنفعه داعيةُ غيره[1] : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[2]

---

(١) هذه نهاية مقولة الإمام في الصُّحبة ، وخلال الصاحب النافع والصديق الفاضل ،وربّما تراه استطرد خلال حديثه ، كل ذلك ليمتلك قناعة مخاطبيه ، وينفذ إليها .

(٢) حلية الأولياء [٨/ ٢٠٢] عن زيد بن أرقم رضي الله عنه[كنز العمال ٣/ ٥٢٥٠ و٥٢٥٥] ومجموع لشمس الدين بن القماح رآه الإمام السيوطي ، ونقله منه ، من رواية أبي حامد المصري بإسناده عن مشايخه إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه [كنز العمال ١٦/ ١٢٧ برقم ٤٤١٥٤] . وانظر موسوعة أطراف الحديث ٢/ ٣ ولكنه يحيل أحياناً إلى روايات ليس فيها : « فإن لم تكن تراه فإنّه يراك » كما في رواية الإمام أحمد ٢/ ١٣٢ . . ورواه نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد (الفكر) ٢/ ١٦٥ برقم ٤٩/٢ وقال : رواه الطبراني في الكبير . =

شمائل الصُّوفي :

للتصوّف خصالٌ محمودة ، أولها تجريدُ التوحيد ، ثمَّ الإيثار ، ثم إيثارُ الإيثار ، ثمّ حسن العِشرة ، ثم فَهْم السَّماع ، ثم تركُ الاختيار ، ثم سُرْعة الوَجد ، ثم الكشفُ عن الخواطر ، ثم كثرةُ الصَّمت إلاَّ فيما يؤولُ إلى الله ، ثم تَرْكُ رؤيا الاكتساب[1] ، ثم تحريم ادّخار ما يكتسبه[2] .

= ورواه البخاري [الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ ٥٠] ومسلم [الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان٩ و١٠] كلاهما بلفظ : « أنْ تعبد الله . . » وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه مسلم برقم ٨ عن عمر رضي الله عنه .

(١) ليس المراد عدم السعي للإرتزاق ، وقد مرّ بنا حثّ الإمام على العمل والاحتراف ونبذ البطالة ، إنّما يريد أنّ المرء حين يسعى ـ ويجب أن يسعى ـ أخذاً بالأسباب ،فإنّ مايصيبه إنْ هو إلا فضلٌ من الله جلّ جلاله ، وليس من الأسباب ولا من الإكتساب ، فلايقولنّ :أنا عملت ، وأنا شقيت ونصبت . . بل يقول : الله حباني ، والحمد لله الذي أعطاني ، فقد يأخذ المرء بالأسباب ، ويطرق على الرزق كل باب ، وتوصد من دونه الأبواب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

(٢) معنى « تحريم » هنا معنى لغوي لا شَرْعي اصطلاحي ، وهو المنع ، أي منعُ الادّخار ، والعزُوف عنه ، ثقةً بما عند الله تعالى ،قال ابن =

وعلامة الفقير[1] الصّادق في جميع الحركات : التقلُّلُ من المباحات ، والصَّمَمُ عن كثير من المسموعات ، وأنْ لايطلبَ المعدومَ حتى يبذل المجهودَ والموجودَ[2] ، وانقطاع الحِيلة ، حتى لا يرى في أحواله وشدّته ورخائه

دريد الأزدي : « حرمْتُ الرجل أحْرِمُه حِرْماناً وحرماً إذا سألك فمنعته والرجل محروم . . » [جمهرة اللغة (حيدر آباد)٢/١٤٣] فالإدّخار ليس محظوراً ماأدّيت زكاته ، شريطة أن تكون ثقة المرء بما عند الله ، وبالله ، لابما عنده ،وهل يأمن الذي يركن إلى مدّخراته المالية أن يخسف الله تعالى به الأرض وبما ادّخر؟ أو يأمن أن يرسل الله عزّوجلّ على مدّخراته زلزالاً ويبقى هو شريداً بلا مال ولا مأوى . .

(١) الفقير : الصوفي .

(٢) لا يتشوف إلى كسب جديد حتى يفنى ماعنده ، وبعبارة أخرى لا يتشوّف إلى المزيد مادام عنده مايكفيه ، وقد كان رسول الله ﷺ يدعو الله عزّ وجلّ : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » متفق عليه [رياض الصالحين (دار المأمون ـ ط١٢) ص ١٩٦ برقم٥٠١] وقال ﷺ : « قد أفلح من أسلم ، وكان رزقه كفافاً ، وقنّعه الله بما آتاه » [مسلم١٠٥٤] قوتاً : ما يسدّ الرمق . كفافاً : بمقدار الحاجة من غير زيادة ونقصان . والمراد إبقاء وقت واسع للعبادة . فإن ترك وقتاً كافياً للعبادة ، ثم عمل بعد ذلك في زراعة أو صناعة أو تجارة أو حرفة واغتنى ، وأدّى ما عليه من حقوق ، وأشغل الأيدي العاملة المسلمة ، وأحسن إلى العجزة والفقراء والمعوزين ، فإنه يفتح بذلك رافداً جديداً للأجر ، كالعبادة .

وتقلُّبه غيرَ خالقه ومكونه ، وإن الفقير متى نظر إلى ما يُلْبَسُ ، التبس عليه أمره ، ومتى ما رأى الخَلْقَ مِنْ دونه ظهرتْ عيوبه ، الفقير ابن وقته ، يرى كلَّ نفسَ من أنفاسه أعزَّ من الكِبْريت الأحمر ، يودع لكل ساعة ما يَصلح لها ، ولا يُضيع شيئاً .

وعليه أن يخزُنَ لسانه عن نطقه ، ولا يطلقه في غير حقه ، فإذا نطق ينطق بعلم ، وإذا صَمَتَ يصمُت بحِلم ، ولا يعجل بالجواب ، ولا يهجُم على الخطاب ، وإذا رأى مَنْ هو أعلمُ منه أنصتَ لاستماع الفائدة ، يحذر من الخطأ ، ويحترز من الغَلط والزَّلَلِ ، ولا يتكّلم فيما لايعلم ، ولا يناظر فيما لا يفهم .

وأوّل ما ينبغي للإنسان أن يأمر نفسَه بالمعروف ، فإن ائتمرتْ يأمر الناس ، ويَنهى نفسه عن المنكر ، فإن انتهت يَنْهَى الناس ، وإلا فيصير هدفاً لسهام قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا

عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[1]

ولقوله تعالى : ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾[2] .

الحكمة

إذا طابت أنفسُكم للحكمة ، فارفعوا بها خواطركم إلى حكمة نبيكم ﷺ ، وإلى كلام ربّكم جلَّ وعلا ، فإن طابت خواطرُكم بحكمة النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، وتنوَّرتْ بكلام الله ، فهي على هدًى ، وإن لم تطبْ بالحكمة النبويّة وتتشرف بنور القرآن ، فهي ضجيعةُ الشيطان ، فتوبوا ، واستغفروا ، وأقلعوا[3] بالإنابة إلى ربكم ، فرُبَّ علم ثمرتُه جهل ، وربَّ جهلٍ ثمرته علم .

كلُّ علم أنتج دعوى التفوُّق به فثمرته جهل بحت ، الله

---

(1) الصف : ٢ ـ ٣ وقال أبو الأسود الدؤلي :

لا تنهَ عن خلقٍ وتأتيَ مِثلَهُ   عارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

(2) سورة البقرة : ٤٤ .

(3) كُفوا عن المعاصي .

تعالى يقول : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] .

يمكن أن تكون أعلم من أخيك بنحوك ، وهو أعلم منك بصبره .أعلمَ منه بفقهك وهو أعلم منك بعلمه ، أعلم منه بفلسفتك ، وهو أعلم منك بطريق حكمته ، أعلمَ منه بخلافك[2] ، وهو أعلم منك بحقيقته ، أعلمَ منه بلغتك ، وهو أعلم منك بخُلُقه ،أعلمَ منه بتفسيرك ، وهو أعلم منك بذوقه ، أعلمَ منه بحديثك ، وهو أعلم منك بصدقه ، أعلمَ منه ببيانك ، وهو أعلم منك بحاله ، أعلمَ منه بِشعْركَ ، وهو أعلم منك بإخلاصه .

الفنون النوعية في العصابة الإنسانية لا تتناهى ، والفنونُ العلمية متناهيةٌ بالنسبة للمدوَّن ، فمتى قابلت المدوَّن بالنوعيّ ، رأيت أنك لو بلغت الغاية في كل مدوَّن ، أنت قاصرٌ فيما لايحصى من النَّوعي . هذا نوع الإنسان ، قال فيه ربك سبحانه :﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3] جاء في

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) الخلاف العلمي في فروع الفقه .
(٣) العلق : ٥ .

الخبرعن سيد البشر ﷺ : « رُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلَى مَنْ هُوَأَفْقَهُ مِنْهُ »(1) .

توسَّعْ إذا حقَّقْتَ ، وحقِّقْ إذا دقَّقْتَ ، ولاتكنْ في سَيْرِكَ إلى ربّك كحمار الرَّحى غايته مبتداه ، اقطع عقباتِ الـوجـود بعلمـك ، بفهمـك ، بعقلـك ، بنظـرك ، باستدلالك .

سفَّه قومٌ طريقَ الاعتبار لغلبة الطَّبع ، فما نجحوا بظلمات الهوى وكثافة الضَّلال ، وسفهوا أهل النظر الصحيح جهلاً منهم ، أولئك : ﴿هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾(2)

بادرْ - أيْ أخي - إلى ما لابُدَّ له ، وتَرَفَّعْ إلى فضلٍ تُذكر به في محافلِ قومك ، ويُثْني عليك به في الملأ

---

(1) مسندأحمد ٤١٥٧ و٢١٤٨٢ والترمذي : العلم ، باب ماجاء في الحثّ على تبليغ السماع ٢٦٥٨ وأبوداود : العلم ، باب فضل نشر العلم ٣٦٦٠ . وهو حديث صحيح .

(2) سورة البقرة : ١٣ .

الأعلى عند ربِّكَ ، لتصير حميدَ السيرة في المَلأَيْن ، ممدوح الخصال في العالَمَيْنِ .

الرجل مَنْ تظهر آثاره بعده ، اجهدْ أن تُبقي الأثر بعد العين ، واجعله طيباً مرضياً ، الحق مكوَّر تحت الضلوع ، توقنُ به أنفسُ الحاسدين ، وتعترف به قلوبُ الجاحدين ، وحسبك أن تَقِرَّ لحقك أنفسُ حسَّادك ، ولو انعقدت عن النطق به ألسنتهم ، وأن تعترف به لك قلوب جاجديك ولو صرفهم عن التفوُّه به جحودهم . هذا شرف الحق فليفتخر المحقّ ، وليبهج أهلُ الحقّ .

التمسك بالحق :

رأيتُ رسولَ الله ﷺ ليلة عيد الفطر وقد ملأ نورُهُ عوالمَ الله تعالى كلَّها ، فقلت : الصَّلاةُ والسَّلامُ عليك يا رُوح العَوالِم يا رسول الله . فقال ﷺ : وعليك السلام .

فقلت : يا حبيبي ، علمني أشرف العلوم . فقال : هو

الوقوف عند الحقّ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾(١) وحسبك .

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ونبيّك ورسولك ، سيّد أهل الحقّ ، الناصر الحقّ بالحقّ ، محمّدٍ أكرم عبيدك ، وأشرف عبادك ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

اللهم أرشدنا به للحق ، واجعلْنا ببركته من خاصّة أهل الحق : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾(٢)

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٢ . قال أبو حيان الأندلسي الغرناطي : « وقيل : معنى الآية الوعد ، فإنّ من اتقى الله علّمه الله »[البحر المحيط (دار الفكر) ٢/ ٣٥٤] . ويؤيد هذا القول قراءة شاذة ليست من القراءات الأربع عشرة بتسكين الميم في (ويعلمكم) وهذا هو العلم الوهبي اللَّدُني ، يلتمس بالتقوى والطاعة . وهو يقابل العلم الكسبي المفروض فرضاً على المسلم إمّا فرض عين ، وهو ما ينبغي تعلّمه من الدين بالضرورة ، وفرض كفاية ، يشمل ماوراء ذلك . ويُحظَرُ القعود عن طلب العلوم المفروضة فرضاً عينياً ، قال أبو حيان : « وكثيراً ما يتمثلّ بهذه (الآية) بعض المتطوّعة من الصوفية الذين يتجافون عن الاشتغال بعلوم الشريعة من الفقه وغيره إذا ذُكر له العلم والاشتغال به قالوا : (واتقوا الله ويعلمكم الله) ومن أين تعرف التقوى وهل تُعرف إلاّ بالعلم » [البحر المحيط ٢/ ٣٥٤] .

(٢) الكهف : ١٠ .

يا أهل دوائر الحقّ في حضرات الحق! قولوا الحق، أينَ كنتم، وحيثُ وُجدتم، امحَقُوا الباطل بحقكم، افتحوا مُقَلَ الآدميّين بمِيل الحق[1]، ليتنبَّهوا من سِنَةِ[2] غفلاتهم بكم، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[3].

والنبي ﷺ يقول: «لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[4].

الشريعة والحقيقة

يا فقيهُ، لا تَصِرْ مغلوباً لفقهك، فيغلبَ علمُك عقلكَ، فتعلوَ وتطيش وتحرّفَ، اِجعَلْك وفقهك وكلَّ ما

---

(١) المُقلة: العين. والمِيل: مايُجعل به الكُحل في العين، ويسمى ايضاً المِلْمول.

(٢) السِّنَة: النُّعاس، بداية النوم، وهو الوَسَنُ أيضاً.

(٣) فصّلت: ٣٣.

(٤) البخاري: الجهاد، باب دعاء النبيّ ﷺ إلى الإسلام.. رقم ٢٧٨٣ ومسلم: فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم٢٤٠٦. كلاهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه. وحمر النعم: الإبل الحمراء، وكانت أنفس الأموال عند العرب.

بلغه علمُك للحقّ ، صِرْ منصفاً لتنفع الناس وتنفع نفسك ،طهّرْ قلبك بذكر ربّك ، املأه بالخوف منه تعالى ليصلح ، إنَّ القلبَ إذا صلح : صار مهبط الأسرار والأنوار والملائكة ، وإذا فسد : صار مهبط الظُّلَمِ والشياطين .

وإذا صلح : أخبرك عمّا في أمامك وورائك ، ونبَّهك عن أمورٍ لم تكن لتعلمها بشيء دونه ، وإذا فسد حدَّثك بأباطيل يغيب معها الرُّشدُ ، وينتفي السَّعدُ ، فيا طُوبَى[1] لمن أصلح اللهُ قلبه .

أشْرِك الخلق كلَّهم في منفعتِكَ[2] ، فإنَّ أحبَّ الخلق

---

(١) الطوبى : الحُسنى ، الخير .

(٢) قال الشيخ عبد القادر الجيلاني : « ما وصلتُ إلى الله تعالى بقيام ليل ولا صيام نهار ، ولكنْ وصلت إلى الله تعالى بالكرم والتواضع وسلامة الصدر » [محمد نووي : سلالم الفضلاء في شرح منظومة هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء لزين الدين بن علي المعبري المليباري (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٦هـ بهامش كفاية الأتقياء لبكري المكّي) ص ١٢ وقال نووي في الصفحة نفسها : « وبعضهم يحمل الحطب ونحوه ويبيعه في السوق لأجل التَّصدُّق بما يتموّل ، فهذا من العادات =

إلى الله أنفعهم للخَلْقِ .

وصِرْ مادة نفع[1] ، فكلُّ من لم ينفع في الدنيا ، لم ينفع في الآخرة .

صحح اليقين بإشارات الصالحين ، وزكِّ نفسك بفقهك ، فإن النفس على ثلاثة أضرب :

نفس أمارة بالسوء : وهي نفس الجاهلين والعاصين ، ونفس لوّامة : وهي نفس المؤمن ، تسره حسنته ، وتسوءُه سيئته ، ونفس مطمئنة : وهي نفس الموقنين العارفين المنقطعين إليه ، فإنَّ مَنْ عرف الله حقَّ معرفته ، قطعه إليه بكُلّيّتِه .

☆ ☆ ☆

= النافعة ، فتحصل بها بركات دعوات المسلمين » .

(١) قال ﷺ : « خيرُ الناس مَنْ ينفع الناس ، فكنْ نافعاً لهم » رواه ابن القماح عن خالد بن الوليد رضي الله عنه [كنز العمال ١٦/ ٤٤١٥٤] .

عودة إلى شمائل الصوفي :

قل لأرباب الغفلة : مجالُسنا مجالُس الأحزان والمآتم ، لأن الفقير لايزال متأسفاً على مافاته من الفضائل ، يرجو الحقَّ ويخافه ، فإن سَمِع شيئاً يشير إلى المفاصلة خاف ، وإن سمع شيئاً يشير إلى المواصلة رجا ، وإنْ دُعي أجاب ، وإنْ سمع ردّاً بَكى وهَاب ، تسيرُ به الفطنة في هذه المجالس لاقتناص شوارد الحِكْمة[1] ، حتى يصيرَ من أهلها ، قال الله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2] .

أفيضوا نفعكم على الخلقِ كُلِّهم ، فإنّ المؤمنَ كلَّه بركة ، ورحمةٌ ، ونفعٌ ، أينما كان ، ، تعاونوا على

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكلمةُ الحِكْمةُ ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها » [الترمذي : العلم ، فضل الفقه على العبادة ٢٦٨٨] وفي رواية « كلمةُ الحِكمة » .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٩ .

مصالح دينكم ودنياكم ، « يد الله مع الجماعة »[1] ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[2]

وإياكم والتعاون على ظلم الخَلْق وشهوات النفوس ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

شرف الأمة بالتعاون على مصلحة الدُّنيا والدين .

التجربة السّارية بحُكْم الوضع الأصلي في النوع الآدميّ تقول : هلك المتفرّقون! اعرفوا حقّ العصائب الزكية في الأمّة ، حَطَّهم الزمانُ أوْ رفعهم ، أضعفهم أو أقواهم .

لذوي البيوتات في قلوب العامة سلاسل تهزها بحال ما يصلُ إليها .

☆ ☆ ☆

---

(١) اقتباس من حديث بهذا اللفظ في الترمذي : الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة ٢١٦٧ . وانظر كنز العمال ١/ ١٠٣١ و١٠٣٢ .

(٢) المائدة : ٢ .

مناصرة السّنة النبويّة :

لا تهدموا شُرفاتِ بيوتِ مجْدِكم بِخسَّةِ الطِّباع ، وسوء الحال ، فإنَّ أولَ بانٍ للمَجْد رتَّب عليكم حقوقاً ، أعزُّها حفْظُ مَجْده من بعده :

لا تَقْصُرْ هممُكم عن أنْ يتصدر كلُّ واحد منكم فيبنيَ مجداً ثانياً فوق المجد الأول ، هذا سيِّد أهل المجد ، وأمجدُهم وأعظمُهُم عند الله والناس ، مولانا ووسيلتُنا إلى ربّنا ، وسيدُنا محمد رسول الهدى ﷺ ، بنى للمسلمين بيت مَجْدٍ إلهيّ ـ دينيّ ودنيويّ ـ جَمَعَ بين شَرَفَي المادَّة والمعنى ، ووفَّق بين عزمي الآخرة والأولى ، فانظروا كيف تَخلفونه في حفظ مجد هذا الدّين المتين ، والكتاب المبين ، ابذُلوا لإعلاء كلمة مجده الربّانيّ المحمّديّ الأموال والأنفس ، قِفوا عند حدِّه ، لاتنحطُّوا عن هذه الرُّتبة السعيدة ، فإن الانحطاط عنها مخالفة ، والله تعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

---

(١) النور : ٦٣ .

إذا رأيتم المنتصر لنبيّه فانصروه ، وأعزّوا كلمته ، فإنَّ في ذلك من النفع في دينكم ودنياكم ما يقصر عنه الواصف ، ويَكِلُّ عنه لسانُ المعبِّر .

ما أَحطَّ همةَ مَنْ عارض رجلاً يسعى لإصلاح شأن الدِّين منتصراً للنبيِّ الأمين؟! أفٍّ له ، لاعقلَ له ، قامتْ هذه الحُجَّةُ على كلّ آدمي ، ووَجَبَ عليه الانتصارُ لكلمة سيدنا محمد ﷺ ، إذ لوْ فَقِهَ عَلِمَ أنه هو الذي شاد مَنارَ العدل ، وأوضح المَحَجَّة ، وأقام الحُجَّة ، وأوقع الطُّمَأنينة في القلوب ، وكفَّ بشرعه الكريم أيديَ النّاس عن الناس ، ومهَّد بنيان الأمْن والإيمان ، وقاتَلَ لله على كلمة الله ، ليُذيع سر عدل الله في مُلْك الله ، وليُفْرِغَ حكمَ أمان الله في خَلْق الله[1] .

---

(١) ولنا بخير الخَلْق أحمدَ أُسْوةٌ فلقد غدا يُزْجي السَّرايا والقَنا
ويسوسُ أمّة دعوةٍ قُدْسيَةٍ للعالمين ، وما أزلّ وما ونى
ويوجّه التاريخ نَحْوَ هدايةٍ ويعلّم الثَّقَلَيْن نَهْجاً أَبْيَنا
ولنعمَ أحمدُ والفؤادُ فداؤُهُ يافرحةَ الأرواح يا قمراً لنا
يا سيّداً للمُبْصرين وخاتماً . للمُرسَلِين، ورحمةً نَهضَتْ بنا =

وهو الذي ساوى بشرعه بين الأمير والمأمور ، والقويّ والضعيف ، والغنيّ والفقير ، والصغير والكبير ، والشريف والمشروف ، وكلُّهم عنده في الله سواء .

وهو الذي هدم قواعد البَغْي ، ومَحَقَ أساس الجَوْر ، وبدَّد أركان الظُّلم ، وبَسَطَ بساط الرَّاحة والبرَكة ، وصان الحقَّ وحمى أهله ، وأقعد الناسَ على صعيد واحد ، وأرتعهم في بُحبوحة الأمان من طوارق وَعْثاء النفوس الباغية ، والطباع المتسلّطة العادية ، ودلَّ على الله ، وأرشد إلى الله ، وهذَّب الأخلاق ، وذكَّر بالله ، وربط القلوبَ بحبل الله ، وعقدها على محبة الله[1] وفتَكَ وأحسن[2] ، وقطع ووصل .

يزجي : يسوق ، يدفع . القنا : الرماح . ما أزلّ : ما أخطأ .
ونى : ضعف وفتر . أبين : واضح .
(الأبيات للمحقق) .

(١) ألفاظ الإمام عذبة مجتباة ، وعباراته دفَّاقة موفَّقة ، والبغي : الظلم ، والصَّعيد : وجه الأرض ، والتراب ، والموضع الواسع ، ج : صُعُد وصُعْدان . والبُحْبُوحة من كل شيء : وسطه وخياره ، جمعها بحابيح ، أرتعهم : جعلهم يرتعون أي يَنْعَمون في سَعة .

(٢) أحياناً حارب أعداء الإسلام ، واحياناً جادلهم بالتي هي أحسن ، وفي =

وكلُّ فَعالِه[1] لله ، وإنقاذاً لخَلْق الله من وَهْدة[2] العيوب القاطعة عن الله ، فهو أمينُ الله على خَلْق الله في بلاد الله إلى أن يُحْشَر الخَلْقُ إلى الله[3] ، والأمرُ يومئذ لله ، فمن أراد الله به خيراً فقَّهه في الدِّين ، ودلَّه على هذا الطريق الأمين ، فهجر المكابرة والعِناد ، وتمسّك بحبل الهدى والسَّداد ، وأخذ كلمة الحق باباً ، فدخل بها منها إلى حضرة أمان الله ، مؤمناً بالله ، وبكتاب الله ، وبكل ما جاء من عند الله إلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ .

أيُّ شريعة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وهم إخوانه ـ جاءت بمثل شريعته؟ وأيُّ طريقة للمرسلين

= كلتا الحالتين دعا إلى الله تعالى بالحكْمة ، وأحْسَنَ الدَّعْوة .

(١) الفَعال (بفتح الفاء) : العمل الحميد .

(٢) الوَهْدة : الأرض المنخفضة .

(٣) محمد ﷺ رسول الله تعالى إلى الخَلْق كافّة ، في زمنه ، وفي سائر الأزمان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومَنْ وماعليها ، وكل مدّع للنبوّة من بعد بعثة محمّد ﷺ إنّما هو أفّاك خرّاص ، وليس يتبعه إلاّنوكَى الأشخاص .نوكى :حمقى . وخسنت البابية وضلّت القاديانية .

ـ وهم عِيالُه ـ وفَّتْ بمثل طريقته؟ امتازهم الله على الناس فأعزّهم بالنبوة والرسالة ، وامتازه الله على جميعهم فأيّده الله مع النبوّة والرسالة بالحِكْمة والبيان ، وعلو الهمّة ، وشدّة العزم ، قيل له : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ ﴾[1] علْماً أزلياً بأنَّ حُكْم قابليّة ذاته يقوم بصبرهم كلّهم ، فالعارفُ مَنْ كان عاقلاً ، والعاقل من كان حكيماً ، والحكيم من كان مسلماً[2] .

وإلاَّ ، فالعارف إذا لم يكن عاقلاً فهو مُوَسْوس ، والعاقل إذا لم يكن حكيماً فهو مخلِّط ، والحكيم إذا لم يكن مسلماً فهو واهم .

☆ ☆ ☆

---

(١) الأحقاف : ٣٥ .

(٢) قال الدكتور عبد الحليم محمود : « الرأي الذي نراه هو ما قال به عطاء من أنّ الحكمة هي المعرفة بالله » وقال أيضاً : « فالحكمة ينتهي معناها في رأينا إلى كُلٍّ متكون من جزئين :
أحدهما : المعرفة بالله . وثانيهما : المعرفة بالخير . أو بعبارة أدقّ هي عبارة عن المعرفة بالله ، التي تتضمّن المعرفة بالخير » [التفكير الفلسفي في الإسلامي (ط٣) ص ٢٣٢] .

مِنْ هَدْيِ الإسلام :

الإسلام روح الحكمة : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾(1) .

أتى الإسلامُ بالبرهان القاطع ، والحُكْم الصَّادع ، فعَقَد العقول على الحقِّ بالحقّ ، وأوقفها أن تجمع شأنَها على مالا حقيقةَ له من قول وعمل ، يُحيط العقل ، ولكنْ هاتِ العقلَ الكامل وأَحِطْ به الإسلام ، وخذه على مفكرتك ، وتدَبّرْه بعدُ بعين فِقْهك وبصيرتك تجدْه نوراً في قلبك ، وحالاً في عزمك ، وبركةً في سِرِّك ، وطمأنينة في خاطرك ، وقوة في عزيمتك ، ورياضةً في طبعك ، وعصمةً في أمرك ، وبياناً في لسانك ، وشرفاً في صفاتك ، وعزاً في طَوْرك ، ومجداً في سلوكك ، وزيادة في نخوتك ، وحِصناً في معيشتك ، ورُكْناً في همتك ، وأماناً في آخرتك ، ورِبْحاً في دنياك .

---

(1) آل عمران : ١٩ .

وإذا لم يفقهْ عقلك من الإسلام ـ بعد أن يُعْمِل الإحاطة به ـ هذه الأسرار الباهرة ، فاتَّهِم عقلَك ، فإنه ما أحاط به ولافهم فقهه ، ولاوصل إلى سِرِّه .

قامتْ لربي به الحُجّة : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(١) أخذت به قابليات الطباع حظوظَها في دائرة لا تعد ، والحكمة لاتنحرف عن الصَّواب : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٢) صفت مناهله ، وطابت مشاربه .

تنبيه :

عجباً للجاهل يكتسي بكسوة العُيَّاق(٣) ، فيَرى الآخرَ مكتسياً بكسوة التّجار فيسقطُ من عينه ،

---

(١) الحج : ٧٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٣) الكُسْوة : بضم الكاف ، وبكسرها ، والمعنى واحد .

والعَوْقُ : الذي لاخير فيه . ج : أعواق . والعَوْقة : الذي يعوّق الناس عن الخير . وعاقه عن الشيء يعوقه عَوْقاً ، ويَعيقه عَيْقاً : منعه منه وشغله عنه والعُياق : الذين يتكسبون بالإختلاس وخفّة اليد في النَّشْل ، ويشغلون الممكور بهم ببعض حيلهم . وجمع عائق : عُوّق . أمّا عُيّاق : فمولَّدة .

وذاك[1] يرى الآخر مكتسياً بكسوة الجند فيسقط من عينه ، وذاك يرى الآخر مكتسياً بكسوة الفقراء فيسقط من عينه . وهلم جرّاً .

وصايا أخيرة أو آخر الوصايا :

يا مَنْ عقل عَقْله يعاقل الكُسا[2] المجرّدة ، خذ الحِكمةَ أين وجدتها ، ولا تنظُرْ إلى مصدرها ، انطمِسْ عن المصدر ، وخذها ، ومن أي محل صدرتْ فلْتَصْدُرْ ، هي القصد ، وفيها المطلوب ، ولا تُتبع الحبل الدَّلْو ، أَوقف الأمور عند حدودها ، نَقِّ نظرك حتى يرى الحِكم ، وينصرف عن مصادرها ومواردها .

كن عالماً بما لَكَ وما عليك ، وارْجِع[3] نظرك إليك ،

---

(١) العاتق الجاهل يرى نفسه خيراً من التاجر ، والتاجر يظنّ أنه أفضل من الجندي . . والغني يرى ناطقاً بالحِكمة فيتوهم أنه أحسن من ذلك الناطق ، فلا يأخذها منه .

(٢) الكسا : الأكسية .

(٣) يجوز في فعل « رجع يرجع » أن يأتي لازماً ومتعدّياً بالصيغة نفسها ، =

تفكَّرْ بعوالم الله تعالى ، عالَمُ الماء ، في كل جرعةٍ منه من العوالم العجائبُ . عالم الهواء ، في كل شَمَّة منه من العوالم الغرائبُ .

نشرَ الباري المقيمُ أسرارَ ربوبيته الباهرة وعظمته القاهرة ، وعجائبَ سلطنته القادرة في كلّ شيء وقال لك : اعتبرْ أيها الإنسان بنصّ : ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[1] فإنْ أدركْتَ حِكَمِ العِبْرة في الفكْرة ، ووصلْتَ إلى سرّها المطويّ ، وعالِمِها المخفيّ ، ووقفتَ عن الغفلة ، وسرْتَ مع الحَذاقة[2] ، وجمعت عليك حالك ، فقد فُزْتَ فوزاً عظيماً : ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[3] ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[4] .

ويجوز أيضاً لدى تعديته إضافة الهمزة إليه أو التضعيف ، فيقال : ارجع يُرجع ، ورجَّع يرجِّع . ومثل « رجع » في هذا الحُكم « وقف » .

(١) الحشر : ٢ .

(٢) الحذاقة : الحذق ، يقال : حذق فلان العمل ، وحذق في العمل : إذا أوغل في ممارسته حتى مَهَرَ فيه (تعلّمه حتّى مَهَرَ فيه) .

(٣) الجاثية : ١٩ .

(٤) الأعراف : ١٩٦ .

هذا نظام خاصٌ لأهل الاختصاص ، يهدي اللهُ به منْ يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصَحْبه أجمعين .

والحمد لله في الأول والآخِر ، والباطن والظَّاهر ، له الحُكْم ، وإليه ترجعون .

☆☆ ☆☆ ☆☆

تعقيب

إجابة الداعي في مناقب القطب
أحمد الرفاعي
لأبي القاسم البرزنجي

وقفتُ على رسالة صغيرة لأبي القاسم بن إبراهيم البرزنجي عنوانها هكذا : « إجابة الداعي في مناقب القطب الكامل العارف الشريف سيدنا السيد أحمد الرفاعي » وهي مطبوعة في بولاق سنة ١٣٠١ هـ ، وتقع في نحو عشرين صفحة ، فاقتبستُ منها هذه الفقرات :

« وُلد رضي الله عنه في محرّم سنة خمسمئة (ص ١٣) وكانت وفاته دامت بركاته يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة خمسمئة وثمانٍ وسبعين ، عن ثمان وسبعين (ص ١٩) .

وقد سئل عن الرجل المتمكن الصَّادق ، فقال : هو الذي لو نُصِبَ له سنان في الأرض ، وهبّتْ رياح الشَّمال ما غيّرته ، ولو كان على شاهق (ص ١٣) .

وكان رضي الله عنه يقول : الأنْسُ بالله لايكون إلاّ لعبد قد كملت طهارة قلبه ، وصفا ذهنه ، واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى ، فعند ذلك يأنس بربه (ص ١٣) .

ومن ألطاف الله به وعنايته إذا ما تجلَّى له الحقّ بالتعظيم يذوب حتى يكون بقعة ماء ، ثم يتداركه باللطف فيجمد شيئاً فشيئاً حتى يردّه إلى جسمه المعتاد . ويقول : لولا لطف الله تعالى بي لما رجعتُ إليكم(ص ١٤) .

وكان رضي الله عنه يقول : إذا جئتم ولم تجدوا عندي ما يأكله ذو كبد فاسألوني الدعاء أدع لكم ، فإني حينئذ لي أسوة برسول الله ﷺ (ص ١٥) .

وكان رضي الله عنه يقول : من شرط الفقير ، ألاّ يكون

له نظر في عيوب الناس (ص ١٥) .

وكان رضي الله عنه إذا صعد الكرسي لايقوم قائماً وإنّما يتحدّث قاعداً ، وكان يسمع حديثه البعيد مثل القريب ، حتى إن أهل القرى التي حوالي أمّ عبيدة كانوا يجلسون على أسطحتهم يسمعون صوته ويعرفون جميع ما يقول ، حتى الأطرش والأصم (ص ١٦)

وكان رضي الله عنه يمشي إلى المجذومين والزَّمْنَى ، ويغسل ثيابهم ، ويفلي رؤوسهم ولحاهم ، ويحمل إليهم الطعام ،ويأكل معهم ، ويجالسهم ، ويسألهم الدعاء . وكان يقول : الزيارة لمثل هؤلاء واجبة (ص ١٧) .

وكان إذا سمع بمريض في قرية ـ ولو على بُعْدٍ ـ يمشي إليه يعوده ويرجع بعد يوم أو يومين (ص ١٧) .

وكان رضي الله عنه يقول : لا يحصل للعبد صفاء الصدر حتى لا يبقى فيه شيء من الخبث لا لعدوّ ولا لصديق ، ولا لأحد من خلق الله تعالى ، فهناك تأنس به الوحوش في غياضِها والطيور في أوكارها ، ولاتنفر منه ، ويتّضح له سرّ الحاء والميم (ص ١٨)

وكان مرضه (الذي مات فيه) بالبطن ، وسبب ذلك أنّه سمع قائلاً ينشد هذه الأبيات ، فاضطرب وانزعج وهاجت بطنه رضي الله عنه وهي :

إذا جَـنَّ ليلـي هـامَ قلبـي بذكـركم
أنوحُ كـما نـاح الحمـامُ المطـوّق
وفوقـي سحابٌ يُمطر الهمَّ والأسى
وتحتـي بحـارٌ بـالجفا تتـدفَّق
سـلُوا أمّ عمـرو كيف باتَ أسيرُها
تُحَلُّ الأسـارى دونـه وهـو مُوثّـقُ
فـلا هـو مقتـولٌ ففـي القتـل راحةٌ
ولا هـو ممنـونٌ عليـه فيُعتـق

(ص ١٩)[١] .

---

(١) أبو القاسم بن السيد إبراهيم البرزنجي : إجابة الدّاعي في مناقب القطب السيّد أحمد الرّفاعي . بولاق ، المطبعة الميرية ١٣٠١هـ ١٣ وما بعدها .

الشرف المحتّم

فيما منّ الله به على وليّه السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه من تقبيل يد النبي ﷺ

للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي

٨٤٩ _ ٩١١هـ

☆ ☆ ☆

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الّذين اصطفى .

أما بعد ، فقد وقع السؤال عن مد يد النبيّ ﷺ من قبره الشريف إلى الوليّ الكبير ، الإمام الشهير ، مولانا السيد أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه هل هو ممكن[1] أو لا؟ وهل أسانيد هذه الرواية المشهورة عالية صحيحة؟

والجواب عن السؤال المذكور حرّرتُه بهذا الكتاب ، وسمّيْته الشرف المحتّم فيما منّ الله به على وليّه السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه من تقبيل يد النبي ﷺ .

وأوّل ما أقوله : إن حياة النبي ﷺ هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا قطعياً ، لِمَا قام عندنا من الأدلة في ذلك ،

---

(١) في الأصل : أم .

وقام بذلك البرهان ، وصحت الروايات وتواترت الأخبار . وقد كتبْتُ في حياة الأنبياء كتاباً مخصوصاً ، وبسطْت فيه الأدلّة والأخبار ، وهأنذا أذكر لك بعضها .

منه ماخرجه إبراهيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ مرّ بقبر موسى عليه الصلاة والسلام وهو قائم يصلي فيه[1] .

وأخرج أبو يعلى في مسنده عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال : « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون »[2] .

---

(١) صحيح . ورواه أيضاً مسلم في الفضائل ، فضائل موسى عليه السلام ، رقم٢٣٧٥ والنسائي٣/٢١٦ في قيام الليل ، ذكر صلاة نبي الله موسى عليه السلام . ورواه الإمام أحمد في مسند أنس بن مالك رضي الله عنه ١١/١٢١٤٩و١٢٤٤٣و١١/١٣٥٢٧ ورواه أيضاً عن أنس بن مالك عن بعض أصحابه عن النبي ﷺ :١٦/٢٢٩٥٧و٢٢٩٨٨ .

(٢) نقله السيوطي عن أبي يعلى وحسّنه (الجامع الصغير (دار الفكر) ١/٤٧٧ برقم ٣٠٨٩) ، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (الفكر) : ذِكر الأنبياء ٨/٣٨٦ برقم ١٣٨١٢ وقال : رواه أبو يعلى والبزار ، ورجال أبي يعلى ثقات . وهو في مسند أبي يعلى برقم ٣٤٢٥ والبزار ، برقم ٢٣٣٩ . وفي ميزان الاعتدال (١٩٣٣) واللسان (لسان الميزان) ٢/١٠٣٣ .

ولا يخفى أن الله جمع لنبيّنا وسيّدنا محمد ﷺ مرتبة النبوة والشهادة بدليل ما أخرجه البخاري والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفّي فيه : « لم أزل أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر ، فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السُّمّ »(١) . فثبت كونه عليه الصلاة والسلام حيّاً ، بنص قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(٢) .

والأنبياءُ أولى بذلك من الشهداء ، ونبينا ﷺ أوْلى من

(١) البخاري : المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، رقم ٤١٦٥ . بلفظ : « يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر ، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السمّ » . الطعام : الشاة المسمومة التي أهديتْ إليه ﷺ . الأبهر : عرق مرتبط بالقلب، إذا انقطع مات الإنسان . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما فُتحتْ خيبر أهديت للنبي ﷺ شاةٌ فيها سُم . . [البخاري : الجزية ، باب : إذا غدر المشركون بالمسلمين رقم ٢٩٩٨ . وكنز العمال ١١/٣٢١٨٨ ومشكاة المصابيح للتبريزي ٥٩٦٥ والبداية والنهاية ٥/٢٢٦ ، والحاوي للفتاوي ٢/٢٩٧ . وموسوعة أطراف الحديث٦/٦٦٨ .

(٢) آل عمران : ١٦٩ .

جميع الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ، لما منَّ عليه به من المعالي الفائقة والخصائص الزكية ، وقد أفرد الرجال الأثباتُ حياة الأنبياء جميعاً . وقد رأى نبيّنا ﷺ جماعة منهم ، وأنّهم في الصَّلاة ، وأخبر ـ وخبرُه صدق ـ أنّ صلاتنا معروضةٌ عليه ، وأنّ سلامنا يبلغه ،وأنه يردّ على من يسلّم عليه السلام .

وسئل البارزي عن النبيّ ﷺ هل هو حي بعد وفاته؟ فأجاب أنه ﷺ حيّ .

وكان سعيد بن المسيّب رضي الله عنه أيّام الحرّة[(١)] لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة[(٢)] يسمعُها من قبر رسول الله ﷺ .

---

(١) الحرّة : أرض ذات حجارة سود كأنّها أحرقت . وكان في شرقي لمدينة المنورة حرَّة جرتْ عندها معركة حامية بين جيش يزيد بن معاوية رضي الله عنه بقيادة مسلم بن عقبة المرّي وبين مَنْ خلعوا يزيد من أهل المدينة بزعامة عبد الله بن حنظلة الأنصاري ، سنة ٦٣ هـ ، وانتهت المعركة بهزيمة ابن حنظلة ومن معه ، وأخذت البيعة بعدها ليزيد ، من جديد . وانظر تفصيلاً عن معركة الحرّة إن شئت في الدولة الأموية لمحمد الخضري (المكتبة التجارية الكبرى)٢/ ١٣٠ وما بعدها .

(٢) هَمْهَمَ الرجل : تكلّم كلاماً خفياً يُسْمع ولا يُفهم محصوله .

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن سعيد بن المسيّب قال :لم أزل أسمع الأذان والإقامة في قبر رسول الله ﷺ أيّام الحرّة حتى عاد النّاس .

وقال اليافعي عفيف الدين : الأولياء يَرِدُ عليهم أحوالٌ يشاهدون فيها ملكوت السموات والأرض ، وينظرون الأنبياء أحياءً غير أموات ، كما نظر النبي ﷺ إلى موسى عليه الصلاة والسّلام في قبره .

قال : وقد تقرّر أنّ ما جاز للأنبياء معجزةً جاز للأولياء كرامةً . بشرط عدم التحدّي . قال : ولا يُنكِرُ ذلك إلا جاهل . ونصوص العلماء في حياة الأنبياء كثيرة لاتحصى ، فلْنكتفِ بهذا المقدار .

وحيث إن الحياة ثبتتْ ، وسماع كلامهم ورؤيتهم عليهم الصلاة والسّلام صحّ وقوعها عند الأولياء فخروج يد النبي ﷺ لسيدي السيد أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه ممكن ، ولا يشكّ فيه إلا ذو زيغ وضلالة ، أو منافق طبع الله على قلبه . وإنّ إنكار هذه المزية ، ومثلها ، يؤدي

إلى سوء الخاتمة ، حمانا الله ، لما فيه من إنكار المعجزة الدائمة ، والكرامة الباهرة .

حدّثنا شيخنا شيخ الإسلام الشيخ كمال الدين إمام الكاملية عن شيخ مشايخنا الإمام العلاّمة الهُمام الشيخ شمس الدين الجزري عن شيخه الإمام الشيخ زين الدين المراغي عن شيخ الشيوخ البطل المحدّث الواعظ الفقيه المُقْرِىء المفسّر الإمام القدوة الحُجّة الشيخ أحمد الفاروثي الواسطي عن أبيه الأستاذ الأصيل ، العلاّمة الجليل ، الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الفاروثي عن أبيه إمام الفقهاء والمحدّثين وشيخ أكابر الفقراء والعلماء العاملين الشيخ عزّ الدين عمر أبي الفرج الفاروثي الواسطي ، قُدّست أسرارهم أجمعين ، قال : كنت مع شيخنا ومَفْزَعِنا وسيدّنا أبي العباس القطب الغوث الجامع الشيخ السيّد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه عام خمس وخمسين وخمسمائة ، العام الذي قدّر الله له فيه الحجّ ، فلمّا وصل مدينة الرسول ﷺ وقف تجاه حُجْرة النبي عليه الصلاة والسلام وقال على رؤوس الأشهاد : السلام عليك

يا جدّي . فقال له عليه الصلاة والسلام : « وعليك السلام يا ولدي » . سمع ذلك كل مَنْ في المسجد النبوي .

فتواجد سيدنا السيد أحمد ، وأُرْعِدَ ، واصفرّ لونه ، وجثا على ركبتيه ، ثم قام وبكى ، وأنَّ طويلاً ، وقال : يا جدَّاه

في حالة البُعْـد روحـي كنتُ أرسلُها
تقبّـل الأرضَ عنّــي وهــيَ نـائبتـي
وهـذه دولــةُ الأشبـاح قد حضَـرتْ
فامددْ يمينك كي تَحْظى بها شفتـي

فمدّ له رسول الله ﷺ يده الشريفة العَطِرة من قبره الأزهر المكرّم ، فقبّلها في مَلأٍ يقرب من تسعين ألف رجل ، والناس ينظرون اليد الشريفة . وكان في المسجد مع الحجّاج حياة بن قيس الحرّاني ، والشيخ عبد القادر الجيلي المقيم ببغداد ، والشيخ خميس ، والشيخ عديّ بن

مسافر الشامي وغيرهم ، نفعنا الله بعلومهم ، وتشرفنا معهم برؤية اليد المحمدية الزكية . وفي يومها لبس الشيخ حياة بن قيس الحرّاني خِرْقة السيد أحمد الكبير ، واندرج في سلك أصحابه .

ومن طريق آخر : حدثنا الشيخ محمد العلمي عن الشيخ أبي الرجال اليونيني البعلبكّي عن الشيخ عبد الله البطائحي القادري ، عن الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي عن شيخه القطب الفرد الشيخ عبد القادر الجيلي ثم البغدادي قال : كنت في محفل الكرامة التي أكرم الله بها الشيخ أحمد الكبير الرفاعي بتقبيل يد النبي ﷺ .

قال اليعقوبي : فقلت : أيْ سيّدي أما حسده على هذه الكرامة من حضر من الرجال؟ .

فبكى رضي الله عنه ثم قال : يابن إدريس على هذا يَغْبِطُهُ الملأُ الأعلى .

ومن طريق آخر : حدثنا الإمام القوصي عن الشيخ قطب الدين ناظر الخزانة عن الشيخ ركن الدين السنجاري

عن شيخه عدي بن مسافر وعن خادمه الشيخ علي بن موهوب قالا : كنّا في مسجد النبي ﷺ عام حجّنا ، وكان الشيخ أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه واقفاً تجاه الحجرة الطاهرة ، وقد تكلم بكلمات ضبطها عنه جماعة ، فما أتمّ كلامه إلاّ وقد مدّت له يد رسول الله ﷺ فقبّلها ، ونحن ننظر مع الحاضرين . قال ابن موهوب : والله كأني بها وقد خرجَتْ من القبر المبارك يد بيضاء سوية طويلة الأصابع ، كأنّها البرْق المضيء ، وكأني بالحرم وأهله وقد كاد يميد ، وقد كادت تقوم قيامة الناس ، لمّا ألمّ بهم من الدهش والحيرة والهيبة والسلطان المحمّديّ ، وقد قام الرّحْب وقعد بتكبير الناس وصلاتهم عليه ﷺ[1] .

ومن المعلوم أنّ هذه المنقبة المباركة بلغتْ بين المسلمين مبلغ

---

(١) وانظر خبر تقبيل اليد أيضاً في (إجابة الدّاعي في مناقب السيّد أحمد الرّفاعي لأبي القاسم البرزنجي (بولاق ١٣٠١هـ) ص ١٨ . وسواد العينين في مناقب أبي العلمين أحمد الرفاعي لعبد الكريم الرّفاعي (مطبعة اليمامة بدمشق بتحقيق الدّكتور محمد الوبسي) ٣٨ وما بعدها .

التَّواتر ، وعَلتْ أسانيدها ، وصحّتْ رواياتها ، وإنكارها من شوائب النفاق . معاذ الله .

فائدة :

إن قيل يدخل السيد أحمد رضي الله عنه في الصّحابة لِكَون هذه المنقبة أَثْبَتَتْ له ، وللزّوار بسببه ، رؤيا النبي ﷺ .

الجواب :

الذي عليه مشايخنا أنّه محلّ نظر . والأصح عدم الدخول . وبهذا قال السَّخاوي والفراء وغيرهما ، لأنّ الحجّة استمرار حياته عليه الصلاة والسلام ، وهذه الحياة أخروية ، ليست بدنيوية ، لاتتعلق بها أحكام الدنيا .

وقد ثبت أنَّ السيّد أحمد رضي الله عنه لمّا حجَّ ثانياً ، في العام الذي توفّي فيه ، وزار القبر الطيّب الطَّاهر على ساكنه أفضل صلوات الله وسلامه ، قال تجاه القبر بانكسار ومسكنة :

إن قيل زرتم بما رجعتم؟ يا أكرم الرسل ما نقول؟

فظهر صوت من القبر الشريف سمعه كلّ من في المسجد المبارك يقول :

قولوا رجعنا بكل خير واجتمع الفرع والأصول

ولا غرابة في هذا ، فإن الحبيب عليه الصلاة والسلام كان يخاطب كلَّ قوم بلسانهم ، وجوابه للحِمْيَري عن قوله : أمْنَ امْبرِّ صيام في امْسفر؟ حين قالها على لغة حِمْير ، واضعاً محلَّ اللّامَين من البرّ والسَّفر ميمين : معلوم مشهور .

وجوابه إلى السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه من هذا القبيل . فافْهمْ .

والذي أَدينُ به أن السَّيّد أحمد بن الرفاعي الشَّريف الفاطمي الحسيني رضي الله عنه كان جبلاً راسخاً ، وبطلاً جحجاحاً ، ووليّاً عظيماً ، وبحراً من بحار السُّنَّةِ عجّاجاً ، وسيّداً سنداً انتهت إليه رئاسة طريق القوم ، وانعقد عليه

إجماع العلماء والأولياء ، وقال بتقديمه وتقدُّمه رجال عصره كافَّة ، ومشى أكابر قادات عصره تحت لواء إرشاده ، تمكَّن من الاتّباع للنبي ﷺ ، وصحّ فيه قدمه ، وانتهى إليه التواضع ومكارم الأخلاق

هيهات أن يأتي الزمان بمثله

إن الزمان بمثله لبخيل

نفعنا الله بعلمه وإمداده ، وحاله وإرشاده ، وجعلنا الله في زمرته مع إخوانه أولياء الله ، تحت لواء نبيه ﷺ ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

تمت رسالة الشرف المحتم

للإمام السيوطي

والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

☆☆ ☆☆ ☆☆